

النفلوطي

في سبيل التاج

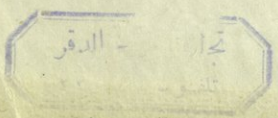
٨

A C 4

٨٠٠

٨٠٠

٨٠٠



J. Lib.

7 MAR 1989

J. Lib.

7 MAR 1989

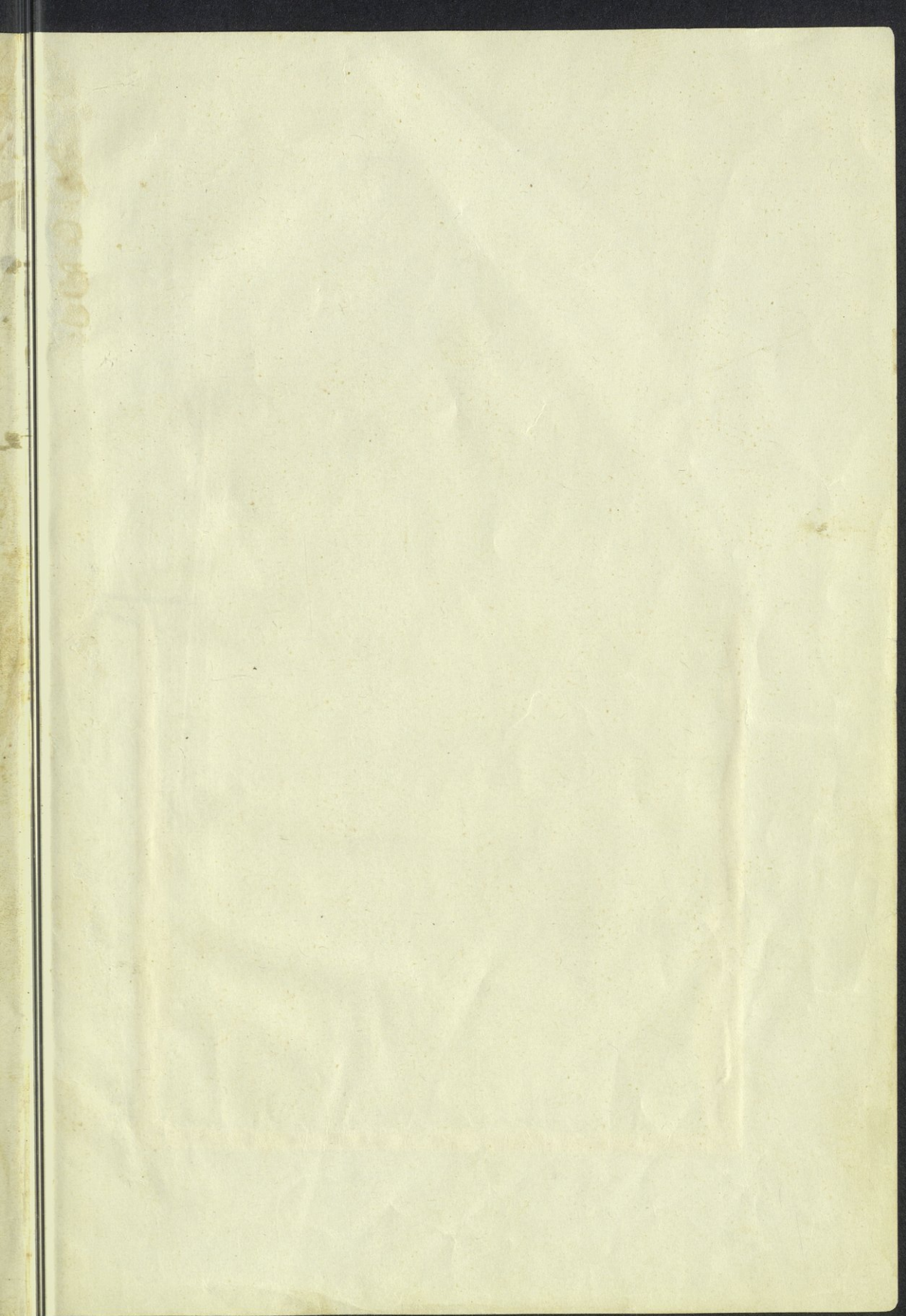
8

AG

Jar

11

11



848
C785 poA
1954
c.1

رَوَايَةُ

فَسَبِيلُ السَّيَاحِ

بقلم المرحوم

مصطفى لطفى المنفلوطي

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرانسوا كوبييه

مع بعض تصرف

يطلب من

مكتبة

المكتبة التجارية الكبرى: شغل محمد علي بمصر

[حقوق الطبع محفوظة]

الطبعة الرابعة عشرة

مطبعة الأمانة العامة بالقاهرة

١٣٧٣ - ١٩٥٤

الهراء الرواية إلى البطل المصرى العظيم

سعد زغلول باشا

« تشرحُ هذه الروايةُ سيرةَ بطل من أبطالِ الوطنيةِ العاليةِ ،
« قد جمع الله له من صفات الشجاعةِ والثبات والعزيمة والغيرة ،
« والإخلاص والنضحية ما جمع لك منها ، فأذن لى أن أهدى ،
« روايتهَ إليك ، وأن أقدمَ البطلَ البلقانى ، إلى البطلِ ،
« المصرى ، لتأنسَ روحُ كلِّ منكأ برُوحِ صاحبه وإن باعدَ ،
« بينكما الزمن ، واختلقت بكما الدار ، فان تفضّلتَ بقبولِ ،
« هديتى وما أحسبُك ضائناً بذلك علىّ ، فلتكنْ جازق عندك ،
« عليها أن تشهدَ لى بينك وبين نفسك أننى قد وضعتُ ،
« لَبيّنةً ^(١) صغيرةً فى ذلك البناء الضخم الذى شدتهُ لأمتك ،
« ووطنك ، وحسبى ذلك وكفى ، »

مصطفى لطفى المنفلوطى

أول يونيه سنة ١٩٢٠

(١) اللبنة - واحدة - اللبن - ككلمة وكلم . وهو المضروب من الطين مربعا للبناء .

مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير : حسن بك الشريف

انصرفت عقول الكتّاب والمفكرين في هذه الأيام وفي جميع البلاد إلى الاشتغال بالمسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية التي أوجدتها الحرب الأخيرة ، وانصرفت الأفلام وراء العقول تُحاولُ إضاءة السبيل لقيادة الشعوب علّهم يستطيعون إقالة هذا العالم من عثرته .

ولقد كان من جراء ذلك أن أهمل الأدب إهمالا نزل به إلى مرتبة دون التي كان يشغلها في نفوس القراء والمؤلفين ، فانحطت التأليف الأدبية انحطاطا قد يستمر ما استمرت حالة العالم على ما هي عليه .

ولم يكن تأثير هذه الأزمة الأدبية في مصر بأقل منه في غيرها إذ انصرف معظم الأدباء عن قنهم وعلى الأخص في السنة الأخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا ، السياسة الكبرى ، فانقطع ظهور الكتب الأدبية أو كاد ، وأوشكت مسارح التمثيل أن تغلق أبوابها لقلّة ما يقدّم إليها من الروايات ، ورأت صحف الأدب أن لا يبقا لها إلا إذا ولّت وجهها شطر السياسة فوقفت جُلّ أعمدتها على شرح وتأويل ما يحمله إلينا البرق من الأخبار ، وبذلك وقفت نهضتنا الأدبية

منتظرة أن تمر العاصفة وتصفو السماء فتستأنف سيرها ويعود إليها عزها ونشاطها بيد أن العناية الساهرة على الفنون قد آتت أن تذبل شجرة الادب في مصر ولما تذبذب أزهارها ، فلم تدع السياسة تستأثر بأقلام جميع الكتاب ، بل أبت للأدب أمته وأنصاره ، فلم يؤسهم شغف الجمهور بسياسة العالم وانصرافه عن كل ما عداها ، وظلوا رافعين لواء فهم في وسط الزوابع والأعاصير عالين أن الأدب أفيد^(١) غذاء لروح الأمة وعقلها ، وأكبر مهذب لإحساسها وشعورها .

في طليعة هذا النفر من أمة الفن وخدامه ، لا أتردد في ذكر اسم السيد « مصطفى لطفي المنفلوطي » الذي لم يخل على قرائه العديدين^(٢) بأوقيات فراغه فوقفها على الكتابة والتأليف ولم تحل أعماله وظيفته الحكومية بينه وبين أن يخرج للناس بضعة مؤلفات قيمة آخرها هذه الرواية الشيقة الممتعة « في سبيل التاج » التي نُقدِّم اليوم طبعها الرابعة^(٣) إلى جمهور القارئ .

* * *

فرانسوا كوييه مؤلف « في سبيل التاج » شاعر عرك صُروف الزمان وجس بأصبعه مصائب الإنسان ، فلم تزد قلبه مناظر البؤس والفاقة

(١) يريد : أكثر فائدة ، فان الفعل الرباعي لا يصاغ منه « أفعل التفضيل »

(٢) يعنى الكثيرين ، واستعمال « عديد » بمعنى « كثير » خطأ شائع .

(٣) هذه الطبعة الأخيرة هي الرابعة عشرة .

إلا ليناً وحناناً ، حتى إنَّ القارئَ لا يَرى في شعره إلا عِبرة حارّة أرسلتها
عيناهُ إشفاقاً وحنوّاً على الذين تخطتهم السعادةُ وغضبتُ عليهم الحياة .
حتى لَقِبَه عارفوه بحقّ « مُعزّي المنكودين والبائسين ، وشاعر الضعفاء
والمحزونين » .

وُلد كوييه سنة ١٨٤٢ ولم تُمَسِّكْنَه بِلَيْتِهِ السقيمةُ من تَتِمِمْ دراستِهِ ،
فانقطعَ عن تَأَقِّي الدُّروسِ في معاهدِ العِلْمِ ، وانصرفَ إلى قِراءةِ الكُتُبِ
والاطِّلاعِ على أوضاعِ الأَقْدَمِينَ ، وكان يَشْعُرُ بِمَيْلٍ شَدِيدٍ غَرِيزِيٍّ إلى
الشعرِ ، فنظّمَ مِنْهُ بَضْعَ قِصائِدَ لم تصادَفْ إعْجاباً مِنَ الَّذِينَ اسْمَعَهُمْ لَهَا ،
فَرَأَى أَنَّ النَّارَ أَحَقُّ بِهَا مِنَ الْمَطْبَعَةِ ، فَأَحْرَقَهَا ، وَطَاقَ الشَّعْرَ وَهَجَرَ الْأَدَبَ ،
وَسَعَى حَتَّى حَصَلَ عَلَى وَظِيفَةٍ فِي الْحُكُومَةِ اسْتَوَلَى عَلَيْهَا ظَنًّا أَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ
لصِنَاعَةِ الْقَلَمِ وَأَنَّ رَغْبَتَهُ فِي الشَّعْرِ مَا هِيَ إِلَّا زَعَةٌ مُفْتُونٌ تَصْبُو نَفْسُهُ إِلَى
مَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ وَلَا طَاقَةَ لَهُ عَلَيْهِ .

يَبْدُو أَنَّ الْفُطْرَةَ مَا لَبِثَتْ حَتَّى غَلَبَتْ الْيَأْسَ فِي نَفْسِ الشَّابِّ ، فَعَادَ إِلَى
الْقِصَائِدِ يَنْظُمُ مِنْهَا الْيَوْمَ مَا يَمِزُّقُهُ فِي الْغَدِ حَتَّى وَفَّقَ لِكِتَابَةِ « صُنْدُوقِ
الْبَغَايَا الْمُقَدَّسَةِ » (Le Reli Puaire) وَنَشَرَهُ بَيْنَ النَّاسِ فَصَادَفَ
رَوَاجاً وَإِقْبَالاً شَجْعَاهُ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ وَالْمُثَابَرَةِ ، وَزَادَهُ تَشْجِيعاً أَنَّ
صَارَتْ بَعْضُ مَنْظُومَاتِهِ تُتَلَّى عَلَى الْمَسَارِحِ وَفِي الْحَفَلَاتِ وَمَا زَالَتْ
شَهْرَتُهُ تَنْمُو حَتَّى اهْتَمَّتْ بِشَأْنِهِ إِحْدَى الْمَمْنَلَاتِ الشَّهِيرَاتِ (مَدَامْ أَجَار)

ورأت فيه قابليةً للتأليف التمثيلي ، فنصحت إليه بكتابة شيء للمسرح ،
فعمل بنصيحتها وكتب « عابر السبيل » (Le Passant) وهي رواية
ذات فصل واحد ، ما كادت تظهر حتى تخاطفتها المسارح ومثّلتها (سارا
برنار) فطار صيتُ المؤلف الشاب وذاعت شهرته وأقبل عليه مُدبرو
المسارح ليمسّون منه المزيد .

ومن سنة ١٨٦٨ نشر كُتُباً شعرية متتابعةً أهمّها « المودات »
(Intimités) و « اعتصاب الحدّادين » و « المتواضعون » وبعض
قصص نثرية منها « المجرم » (Toneune) و « شيونيه » (Jeunesse)
وكثيرٌ من الروايات التمثيلية ، نخصّ بالذكر منها « عواد كريمون »
(Le Luthier de Grémone) و « مدام ده مانتنون » و « سيفير
ونوريلي » و « في سبيل التاج » .

وفي عام ١٨٨٤ انتخب عضواً بمجمع علماء فرنسا ، ثم أنكبَّ على
السياسة وسار فيها شوطاً بعيداً كاد يُنسيه الشعر والأدب ، وتوفّي سنة
١٩٠٨ وهو رئيسٌ فخريٌّ لجمعية الوطن الفرنسية^(١)

هذا ماخصّ حياة ذلك الشاعر النابغة الذي امتاز على أقرانه بأنه
لم يُقلّد أحداً من الأوائل ولا المعاصرين ، والتقليد يكاد لا ينجو منه
شاعر من الشعراء ، وبأن معظم المواضيع التي طرّقها كانت إلى عهده

(١) النسب إلى فرنسا : فرنسي

جديدة لم يتقدم إليها قبله أحد من المؤلفين ، ولقد قال عنه أنا تول
فرنس مامعناه :

إن نفثاتِ قلم هذا الشاعر قد أثرت في جميع القلوب وتمكنت
منها ، لأن أساسها الطبيعة ، وأحسن ما يبرع في الكتابة عنه ويصل فيه
إلى أعلى طبقات البلاغة ما كان له مساس بالمشاعر والأخلاق الاعتيادية
والحقائق الواقعة . وهذا النوع من الكتابة لا يتيسر إلا لأصحاب
الأذواق السليمة والذكاء المتوقد الخارق ، وهو يحتاج إلى مهارة فائقة
وبراعة زائدة ، فإن أقل خطأ فيه لابلث أن يبدو للعيان مجسما ، وإنه
وإن كان في استطاعة كل إنسان مهما كانت منزلته من العلم أن يفهم هذا
الشاعر ويتأثر بأغراضه ومراميه ، ولكن لا يستطيع أن يسبر كنهه^(١)
ويتذوق طعم أدبه إلا من رزق حظا وافرا من العلم والذوق السليم ،
وبالجملة فقراء هذا الشاعر العظيم كثيرون جدا ومن جميع الطبقات ، ولكن
قراءه الحقيقيين قليلون .

أما رواية د في سبيل التاج ، التي نحن بصدها فأساة شعرية تمثيلية
وضعها المؤلف في سنة ١٨٩٥ وأراد أن يجارى بها عميدى الشعر التمثيلي
(١) هذا التعبير غير معروف في العربية ، وهو من الأخطاء الشائعة على
ألسنة الكتاب .

في القرن السابع عشر « كورني وراسين » ، وهي رواية أخلاقية بطلها قتي
تعارضت في نفسه عاطفتان قويتان : حُبُّ الأسرة وحب الوطن : فضحى
الأولى فداءً للثانية ، ثم ضحى حياته فداءً لشرف الأسرة ، ولقد تجلت
في هذه المأساة عبقرية الشاعر ومواهبه الكبيرة ، فالأسلوب سهلٌ ممتنع ،
والأفكار متسلسلةٌ متماسكة ، والوقائع جليلةٌ واضحة ، وأخلاق أشخاص
الرواية تُفسرها أقوالهم وحركاتهم فلا غموض فيها ولا إبهام .

ولقد ذهب النقاد في تقدير هذه المأساة مذاهبَ شتى حتى قال بعضهم
إنها خير ما أخرج للناس من عهد راسين إلى يوم ظهورها .

قال الأستاذ « إيميل فاجيه » العضو بالجمعية العلمية الفرنسية عن هذه
الرواية في الجزء الثالث من كتابه « آراء في التمثيل » مامعناه :

إذا نظرنا إلى ما في الفصول الثلاثة الأولى من القوة والمتانة والوضوح
مع البيان والبلاغة وحسن التصوير : أمكننا أن نحكم بأن هذه الرواية
ستمثّل إلى ما شاء الله بدون أن يماها الجمهور أو يشعر بسأم من سماعها ،
وأن فرنسوا كوبيه « بكتابتِهِ للفصل الثالث منها على الأخص قد ضمنَ
لذكراه الخلود في ذاكرة الأجيال المقبلة وهو الفصل المعنون في التعريب
بـ « الجريمة » .

وقال الأستاذ « جول لومتر » العضو بالجمعية العلمية الفرنسية في
الجزء التاسع من كتابه « خواطر في التمثيل » بعد أن أطنب في وصف

شاعرية كوبيه وفي تقدير مواهبه : إن رواية « في سبيل التاج » لهى من صنّع قى قدير وشاعر عظيم ورجل ذى ضمير حتى وقلب كبير ، وإذا كان فيها بعض النقص فهذا النقص لم يخل منه كورنى ولا فيكتور هوجو ولا غيرهما من كبار الفنانين .

وقال فى موضع آخر من نفس الكتاب : إنَّ المشاهدَ لتمثيل رواية « في سبيل التاج » ليشعرُ منذُ الهنيئه الأولى براحةٍ واطمئنان ثم لا يلبث حتى ينأ كد أنه سيدشاهدُ عملاً مثقناً وفناً نظيفاً ، ولقد يكون أحسن ما فى هذه القطعة تنسيقُ الأفكار وتحليلُ العواطف وترتيبُ الحوادث وتصويرُ النفوس والأشخاص .

هذا رأى كبيرين من زعماء الحركة الأدبية فى فرنسا نورده هنا ليعلم القراء منزلة هذه الرواية من نفوس الأدباء فى الغرب ومبلغ تقديرهم لمؤلفها ولقد تناول (السيد مصطفى لطفى المنفلوطى) هذه المأساة ونقل موضوعها إلى اللغة العربية فى قالبٍ روائى جميل بعد أن أضاف إليها أشياء وحذف منها أخرى وأخرجها لقراءته قصةً يستهوى أسلوبها القلوب وتسترعى قائلها الألباب بقلمٍ عذب وعبارة رقيقة وديباجة بديعة لانطيل الكلام فى وصفها لأن قراء العربية جميعاً يعرفونها لهذا الكاتب العظيم ويعترفون له بها ، ولم يفُتْهُ أن ينقل إلى العربية قطعاً كاملة من الرواية يستطيع القارئ أن يتبين منها قوة المؤلف ، ومع أن

الرواية ملخصة تلخيصاً فقد استطاع الكاتبُ بمهارة فائقة أن يصوّر الروحَ الأصليةَ للدوّلف تصويراً مؤثراً وأن يملك من نفوس قراء العربية ما ملأه فرانسوا كوبييه من نفوس قراء الفرنسية.

ولا يفوتنا هنا أن نقول إنّ الكاتب قد اشتغل بتلخيص هذه الرواية في إبان الحركة الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحى إليه الحوادث السياسية التي لا تزال ماثلة في الأذهان صفحات تفيضُ وطنيةً وغيره حتى لكانه قد أفضى إلى أمته في هذا الكتاب بكثير مما لا يستطيع كتابته في الصحف السياسية ، والحق أقول إنّنا كثيراً ما كنا نعجبُ عليه في سكوته عن الاشتراك بقلبه مع العاملين في هذه الحركة حتى قرأنا هذه الرواية فإذا رُوحه الوطنية الشريفة تسيل فوق صفحاتها سبيلاً وإذا الرواية رواية الحركة الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلقاتها .

وبالجملة فرواية (في سبيل الناج) كتاب الوطنية الخالدة في ثوب قصة خيالية تملك لبّ القاريّ بجملها وتتولّى تهذيب نفسه بأدائها وفضائلها وما أحوّجنا أن نتجرى الأقلام الأدبية في هذا العصر بمثل ما جرى به قلم السيد المنفلوطي في هذه المأساة المؤثرة ليتلقّى النشء الحديث دروس وطنيته من طريق العواطف والوجدان ، وقلما تصل الوطنية إلى أعماق القلوب وتغلل في شغافها إلا من هذا الطريق ؟

مقدمة

لا يزال التاريخ يحفظ في صفحاته حتى اليوم تلك الوقائع الحربية الهائلة التي وقعت في القرن الرابع عشر بين الدولة العثمانية والشعوب البلقانية أيام أغارت الأولى على الثانية تريدُ افتتاحها والاستيلاء عليها فدافعت الثانية عن نفسها دفاعاً مجيداً استمر زمناً طويلاً حتى غلبت على أمرها فسقطت في يد القوة القاهرة ودخل الترك البلقان وحولوا كنائسها إلى مساجد وفرضوا على أهلها الإتاوات الثقيلة^(١) ، وعزلوا مملكتها الذي كان يحاربهم ويناوتهم ومَلَكَوا عليها مَلِكاً من أهلها اسمه (ميلوش) فلبثت في حكم الأتراك عهداً طويلاً عانت فيه من ضروب الذل والهوان ما يعانیه كل شعب مغلوب على أمره ، حتى قَبِضَ الله لها رجل من رجال الدين المخلصين اسمه الأَشَقَق (أتين) عز عليه ضياع بلاده وسقوطها في يد أعدائها وأن تتحولَ فيها الكنائسُ إلى مساجدَ وتُجَارَ في أرجائها أصوات المؤذنين بدلا من أصوات النواقيس وألا يجدَ المسيحيون في عقر ديارهم مكاناً يؤدُّون فيه فروض صلواتهم غير

(١) الإتاوة : الخراج والجزية ، وتقابل في الوقت الحاضر ما يفرضه الغالب على المغلوب من غرامات حربية .

الصَّحَارَى والفُلُوات فأخذ يتنقل في أرجاء البلاد ويمشي بين شعوبها وقبائلها يدعو باسم الدين مرةً والوطنية أخرى . ويستنهض هِمَمَ الرجال للدفاع عن وطنهم وتحريِّر بلادهم من يدِ ذلك القاهر المغنِصِبتِ حتى جمع كلمةَ الأمة كلها من حوله على اختلاف عناصرها ومذاهبها . وكذلك تتفق كلمة الأمة أمام الخطرِ الداهم والقضاء الشامل .

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعةَ التركِ ويتردَّ رعاياهم من بلادِهِ ويمتنعَ عن دفع الجزية والإتاوة وينادى بحريةِ البلقان واستقلالهِ ، فجَبَنَ الملكُ عن ذلك في أول الأمر ثم أسلسَ له وأذعنَ لرأيه ، ففعل ما أشار به عليه ؛ فأحقَّد ذلك التركِ وآسفهم واستثار حقدَهم وضغيتهم . فوجَّهوا إلى البلاد البلقانية جيشاً عظيماً وافر العدد والعدد بقيادة أحدِ أباطهم العظام أرطغرل باشا . فثار البلقانيون جميعاً رجالاً ونساء للدفاع عن أنفسهم والدَّوْدِ عن وطنهم . واختاروا لقيادة جيشهم القائدَ البلغارىَّ العظيمَ الأميرَ مِيشيلَ برانكوميِر ، فظل يحارب الأتراكَ عدةَ أعوامٍ يدال له عليهم فيها ويدال لهم عليه (١) . ولكنهم لا يستطيعون اجتياز حدودِ بلادِهِ واقتحام جبالها ، حتى عيَّ القائدُ التركيُّ بأمرِهِ ورأى أن لا حيلةَ له فيه إلا من طريقِ الدسيسة والكيد ، وكذلك فعل . . .

(١) يتداولون النصر والهزيمة .

الجالوس

اجتمع جنود الفرقة البلقانية ذات ليلَةٍ في معسكرهم يشربون
ويطربون ويرقصون على نغم قيثار الموسيقىّار البوهيميّ المسكين
« بانسكو » الذي كان يَفِدُ إلى معسكرهم كلّ ليلَةٍ يغنيهم قطعاً حماسية
مؤثرة يُدّكرهم فيها بمجد وطنهم وتاريخه العظيم فيرقصون على غنائه
ويطربون ويحسون إليه بما فضل من زادهم وشرابهم ثم جلسوا بعد
فراغهم يتحدثون في شأن ذلك الحادث العظيم الذي حدث في بلادهم منذ
أيام « وهو موت الملك ميلوش وعزم الجمعية الوطنية على الاجتماع للنظر
فيمن يخلفه على العرش من بعده » فانقسموا في رأيهم قسمين : فريق
يرى اختيار الأسقف « أتين » وفريق يرى اختيار القائد « برانسكومير »
فقال الجنديّ الرومانيّ « أورش » وهو من أشياع الأسقف وأنصاره .
« نعم إن النصر قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل برانسكومير ، ولكن
من الذي مهد له النصر وأعدّ له عدّته قبل أن يُعقد له اللواء على الجيش ؟
أليس الأسقف أتين ؟ »

مَن الذي ينكرُ أن ذلك الرجل التقى الصالح هو الذي طاف البلاد
من أقصاها إلى أقصاها عشرة أعوام كاملة يستنهض الهمم ويستثير

حفاظ^(١) النفوس ، ويستحي ميت العزائم ، ويهيج عاطفة الثأر والانتقام
في نفوس الرجال والنساء والفتيان والفتيات ، ويلقي على تلاميذ المدارس
في مدارسهم أناشيد الحرية والوطنية فيستظهرونها مع دروسهم ويتغنون
بها في مسارحهم وملاعبهم ومغدهم ومراحهم^(٢) ؟ .

من الذي ينكر أنه هو الذي علم الشعب البلقاني دروس الوطنية الشريفة
العالية ، وغرس في قلوبهم أن الحياة الدلية خير منها الموت الزؤام ، وأن
الحرية حياة الأمم وروحها ، والرق موتها وفناؤها ، وأن الأمة التي ترضى
بضياع حريتها واستقلالها وتقبل أن تضع يدها في يد غاصبها إنما هي أخطأ
الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفناء ؟ .

ولم يزل يفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروح الوطنية العالية ،
ويملأ عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة ، حتى صفت صماثرهم
من أدران الذل والمهانة ، وأدركوا من معنى الحياة ما لم يكن يدركه
آباؤهم من قبل ، فأصبحوا كما تراهم اليوم حماة الوطن وذادته^(٣) ،
يبدلون في سبيله من ذات أيديهم وذات نفوسهم ما لا يتبدل مثله إلا
الأمم الراقية الشريفة في سبيل الزود عن مجدها والدفاع عن حرّيتها

(١) الحفاظ : الأحقاد ، واحدها : حفيظة

(٢) مغدهم ومراحهم : غدوهم ورواحهم ، صباحا ومساء

(٣) الذادة : جمع ذائد — ذاد يذود : دافع يدافع

واستقلالها ، ويتقدمون إلى الموت زرافات ووحداً^(١) فرحين متملئين
 كأنهم ذاهبون إلى مراقص فيدين ، وملاعبا ؛ لأنهم يعلمون أن قطرات
 الدماء التي يبدلون في سبيل حزبتهم واستقلالهم إنما هي المداد الأحمر
 الذي تَسَجِّلُ لهم به في صفحات تاريخهم آيات المجد والفخار . وأن الأشلاء^(٢)
 التي ينثرونها في تربة وطنهم ثم يسقونها من دمائهم إنما هي البذور الطيبة
 التي تنبت لبلادهم المستقبل الحز الشريف .

من منا يجهل أنه هو الذي استطاع وحده من بين أبناء البلقان جميعا
 أن يقف أمام ملكة وقفة الأسد المصور ويصيح في وجهه قائلاً له :
 حتى متى أيها الملك الضعيف المهين تبيع وطنك وأبناءه لأعدائك
 وأعدائه بيع السلع المعروضة في حوانيت التجار بأبخس الأثمان
 وأدناها ، وإلام تضع هذه السلاسل والأغلال في أعناق أبناء أمتك
 لتقودهم بها إلى حيث يمرغون جباههم الشريفة تحت مواطئ أقدام
 ذلك العدو المغتصب صاغرين ضارعين ، ثم تزعم بعد ذلك أنك ملك
 عظيم جالس على عرش شريف ، ولو حَقَّقْتَ أمرك لعلمت أنك نخاس
 دنيء يبيع الرقيق في سوق النخاسة^(٣) ، بل أدنى من نخاس ؛ لأن

(١) زرافات ووحداً : جماعات وآحاداً .

(٢) الأشلاء : الأعضاء ، مفرداً : شلو .

(٣) النخاس : تاجر الرقيق ، والنخاسة حرفته .

النخاس لا يتجرُّ في أبناء أُمته ولا في أفراد أسرته ! فاهتزَّ الملكُ لكلمته
هذه اهتزازَ القصبةِ الجوفاءِ بين مهابِّ الرياحِ وطأطأ لها رأسه إجلالا
وإعظاما ولم يلبث أن عزم عزمته الشريفة التي ترونها اليوم والتي أنقذت
الوطنَ من العار ورفعته إلى ذِروةِ المجدِ والفَخارِ .

وهنا ضجَّ القوم جميعا ضجة السرور والاستحسان وصاحوا :
أحسنْتَ يا أورش ، أحسنْتَ إحسانا عظيما إلا نفرا قليلا من أشياع
القائدِ وصنائعه ، فإنهم امتعضوا لهذه الكلمةِ وغصَّوا بها^(١) ، وقام
أحدهم واسمه لازار . وكان الحارسُ الخاصُّ لقصر القائدِ وأمينه
وموضع ثقته وثقة زوجته الأميرةِ « بازيليد » وطلب الإذن في الكلام
فأذنوا له ، فقال « إني لا أريد أن أعترض على صدقي أورش في كلمته
التي قالها في فضل أسقفنا العظيم وأثره الجليل في خدمة الدين والوطن
ولكن الذي أراه وأستضوبه أن لرجال الدين شؤوننا خاصة بهم
لا يحمل بكرامتهم أن يتعدَّوها إلى غيرها من أعمال الحياة . وإني
أضنُّ بأسقفنا العظيم أن تشغله مشاغلُ الملكِ وملاهيته عن شؤون
الدين التي تضبو لها نفسه طول حياته ، والرأى الذي أراه أن يعهد
الملكُ إلى القائدِ ميشيل برانكوميير ليقود الأمة جميعها بتلك السياسةِ
الحكيمةِ الرشيدة التي قاد بها الجيش ورفعه إلى مناط السَّماءِ الأعلى ،

(١) غصوا بها : أخذتهم الغصة ، كما يشرق الشارب بالماء أو الآكل ببعض الطعام

فاعترضه جندي كان جالساً على مقربةٍ منه وقال له : « ولم لا تضنّ بالقائد
ميشيل أن تشغله مشاغل الملك وملاهيهِ عما هو بسبيله من قيادة الجيش
وتدبير شؤونه ؟ » فأجاب : « إن قيادة الجيش وزعامة الملك أمران متشابهان ،
لأنهما يتعلقان بشؤون الحياة وأعمالها ، وأما الشؤون الدينية فلا علاقة لها
بالشؤون الدنيوية بحالٍ من الأحوال ؛ فدعوا الكاهن مستريحاً في معبده ،
مستغرقاً في صلواته وعباداته ، واختاروا للملك رجل الأمانة وبطائها وحامي
ذماتها وحماها « الأمير برانكومير » فعلت أصوات الصاخبين والصائحين ،
والمستحسنين والمستهجنين ، وذهب كل في صيخته المذهب الذي يراه
ويشيع له .

وإنهم كذلك إذا بصوت صارخ في وسط هذه الضوضاء يقول :
« استمعوا مني أيها القوم كلمة واحدة هي فصل الخطاب في قضيتكم هذه ،
ولا أطلب إليكم أن تستمعوا مني سواها ، فالتفت الجمع فإذا الضابط
« الأكبر » وهو جندي شيخ عرف القائد برانكومير صغيراً وخدمه
كبيراً وعاش معه في منزله في عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد
أسرته ، ولم يفارقه إلا منذ عامين اثنين . أتى بعد وفاة زوجته بأيام
قليل ؛ فأنصتوا إليه فإذا هو يقول : أنتم تعلمون جميعاً صلتى بالقائد
برانكومير ومكانتي عنده ، وإني أعرف من شؤونه الخاصة والعامة
ما لا يعرفه أحدٌ غيري . ولقد عرفت فيما عرفت من خلافتي وسجاياء
(٢)

في خدمته ، أنه أبعد الناس جميعاً عن مطامع الحياة ومظاهرها وأزغهم
عن سفساف الأمور ودناياها ، وأنه جنديٌ صميمٌ معتزٌ بجنديته وشظفها
وخشونة العيش فيها لا يؤثر عليها أيٌّ مظهرٍ من مظاهر الحياة مهما
علا شأنه وغلت قيمته ؛ فمن ظنَّ منكم أن يرضيه ويحمله بترشيحه
لمنصب الملك فقد أخطأ في ظنِّه خطأ عظيماً ، وإن كان للأسقف دأتين ،
مزاحمٌ على الملك بين أشراف البلقان وسادته فهو غير القائد « برانكو مير » ،
فهدأت الأصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة الهادئة
الرزينة التي ينطق بها جنديٌّ شريفٌ صادق ، وكادت تكون فصلَ الخطاب
في القضية ، لولا أن « أورش » — وهو ذلك الجنديُّ المنشيع للأسقف
والداعي له — قد نهض من مكانه مرةً أخرى ونظر إلى الجندي « البير »
مبتسماً ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال له : « نعم يا سيدي إنك صادقٌ فيما
تقول ، لم تزدُ حرفاً على ما تعرف ولم تنقص ، ولكن ائذن لي أن
أقولَ لك إنك إنما تحدث في كلامك عن الماضي القديم الذي حضرته
وشاهدته ، أما الحاضر فلا تعرف منه شيئاً ، فإن أذنت لي حدثتك
عنه وقلت لك : إنَّ الأميرَ برانكو مير اليومَ غيره بالأمس ، وإن
تلك النفسَ العالية المترفعة التي كنت تعرف بالأمس مكانها من بين
جنبيه قد استحالت اليومَ إلى نفسٍ تواقفة متطلعةٍ تصبو إلى المعالي
وتفتتن بالعروش ، وإنه هو الذي يدعو بنفسه إلى نفسه ويرسل الدعاة

في كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك . ، فاستطير البير غضباً وقال : أتريد أن تقول إن أخلاق قائدنا قد تغيرت وإنه قد أصبح رجلاً صغير النفس متبذلاً ؟ . قال : لا ، ما إلى هذا ذهب ، ولكني أريد أن أقول : إنه قد أصبح منقاداً في شؤون حياته لرأى غيره ، لا لرأى نفسه وربما لو ترك وشأنه لكانت له في حياته خطة غير هذه الخطة التي يلتهجها اليوم ، فانتفض القوم واضطربوا ونظر بعضهم في وجوه بعض ومشيت الهمسات بين الأفواه والآذان ، وسمع الخطيب اسم قسطنطين يتردد مراراً في أفواه الهماسين ، فصاح في القوم . « أتم مخطئون جميعاً فيما تذهبون إليه . فإن ابن قائدنا وزهرة شبيبتنا وضابط فرقتنا أعلى همة مما تظنون » ، فصرخ لازار : « قل من هو الشخص الذي تريد ؟ فجلس أورش ولم يقل شيئاً ، إلا أنه همس في أذن جندي كان بجانبه : « الزوجة الجديدة » ، فسرت هذه الكلمة بين الجموع سريان الكهرباء في أسلاكها حتى بلغت مسمع الموسيقار بانكو ، فبرقت لها عيناه بريق الفرح والسرور ، لأنه لم يكن موسيقاراً بوهيميا كما زعم ، ولم يكن اسمه بانكو كما يسمونه ، بل هو الضابط المشهور إبراهيم بك أحد أركان حرب القائد التركي العظيم أرطغرل باشا وقد وجد في هذه الكلمة التي سمعها ما كان يريد أن يكون ، وعثر بالثلمة^(١) التي ينحدر منها إلى أغراضه وآربه .

(١) الثلمة : الثقب والمدخل في جدار الحصن .

لنومها أوى القوم إلى مضاجعهم وأخذ النومُ بمعاقدهم حتى دبَّ ذلك الجاسوسُ المتنكرُ على يديه حتى بلغ مضجع الجنديِّ لازارَ حارسِ قصرِ القائد وموضعِ ثِقته وأكبرَ أشياع زوجته وأنصارها فاضطجع بجانبه وظلَّ يهمسُ في أذنه ساعة طويلة كان يترددُ فيها اسمُ الأميرةِ بازليدِ زوجةِ القائد الجديدة ، حتى تمَّ لهما الاتفاق على ما يريدان ثم أسلما عيونهما إلى السكّري فناما .

قسطنطين

توفيت زوجةُ الأميرِ برانكومير منذ عامين ، وكانت امرأةً من النساءِ الصالحاتِ القانتات ذواتِ النفوسِ العاليةِ والهممِ الكبرى ؛ فورثَ ابنها قسطنطين عنها هذه الأخلاقَ الكريمةَ ، كما ورثَ عن أبيه صفاتَ الشجاعةِ والعزيمةِ والصبرِ واحتمالَ المسكارهِ في سبيلِ خدمةِ الوطنِ والأمةِ ، فكانَ خيرَ ابنِ خيرِ أبٍ وأمٍّ ، وكان يدُ أيَّه اليمنى ودرعه الواقية الأمانة في جميع وقائعه ومشاهدِهِ ، حتى ذاعَ صيته في جميع أنحاء المملكةِ وأحبَّه الشعبُ والجنْدُ حُباً كان يرفعه إلى ما فوق منزلة أبيه ، لولا حرمةُ الأبوةِ وجلالُ الشيخوخةِ ومكانُ التاريخِ . فلما ماتت أمُّه تزوجَ أبوه من بعدها فتاةً يونانيةً اسمُها بازليدِ ، يقالُ إنها من سلالةِ قياصرةِ بيزنطيةِ ، القُسطنطينيةِ ، وهي فتاةٌ جميلةٌ ساحرةٌ

تستهوى القلوب وتختلبُ الأبواب ذاتُ نظراتٍ غريبةٍ لامعةٍ يقتضى
 المتفرسُ فيها حين يراها أنها نظراتُ مُريّةٍ ألفت الاختلاب والافتنان
 من عهدٍ بعيد ، فنزلت من قلب القائد الشيخ منزلةً لم ينزلها منه أحد من
 قبلها ولا من بعدها ، حتى زوجته الصالحة وولده النجيب ؛ فأصبح
 مستهماً بها ، مستسلماً إليها ، لا يصدعُ إلا بأمرها ، ولا يصدُرُ إلا عن
 رأيها . ولا يرى حُلُوَ العيش وجماله إلا بجانبها ، ولا يستروحُ رائحةَ
 السعادةِ والهناء إلا إذا هبَّت عليه من ناحيتها ، وكانت امرأةً طموحاً
 متطلعةً لا يعينها من شؤون حياتها إلا مظاهرُ الشؤدد والعظمة ، ولا
 يغابُ على مشاعرها وعواطفها إلا ذكرى تاريخ آبائها وأجدادها
 ومصارع قومها في « بينظية » بيد الأترك الفاتحين ؛ وكانت لاتزال
 تتحدثُ في مجالسها العامة والخاصة بثبوةٍ قديمةٍ تنبأ لها بها بعضُ
 المتنبيين ومجملها أن كاهناً عرافاً دخل منزل أبيها وهي طفلة لعبت
 لاتزال تحومُ حول مهديها ، فنظر إليها طويلاً ثم قال لأمتها : إن ابنتك
 هذه ستكونُ مملكةً عظيمةً الشأن في مستقبل أيامها وربما كان
 اهتمامها بهذه الثبوة واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب في قبولها
 الزواج من شيخ هرم مدبر قلباً يُعنى بمثلها مثلها على أمل أن تُحقق لها
 الأيامُ على يديه آمالها وأمانيتها .

فظلت تُخرسُ في نفسه هذه الأمنية الجميلة المحبوبة مُدّة من الزمان

وتسقيها بماء حسنها وجمالها ، حتى ملأت بها فضاء قلبه ، وشغلته بها عن كل شاغل سواها .

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملك ميلوش ، وجاءت الساعة التي تنتظرها . فتهافت به : ها قد حانت الفرصة التي كنا نرقبها ، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك العراف الخبير التي تنبأ لي بها ، وما هو بالكاذب ولا المتخرف ؛ ثم زجّت به في طريق مزاحمة الأسقف أتين على الملك ، فانقاد لها ومشى في الطريق التي رسمتها له ، وأخذ يدعو الناس لنفسه ، ويستكثر من سواد أشياعه وأنصاره ، ويدخل أعضاء الجمعية الوطنية ويداهنهم ويتوسل إليهم أن يساعده على نيل أمنيته التي يرجوها ، مدلاً بمكائنه من خدمة الأمة والوطن ، وأياديه في الذود عنهما ، بما بذل من صحته وشبابه في مقاتلة الأعداء ومدافعتهم تلك السنين الطوال حتى اشتعل رأسه شيباً ولمست قدماه رأس المنحدر المؤدى إلى القبر .

هذا ما كان يشغل القائد وزوجته في ذلك التاريخ أما ابنه قسطنطين فكان بمعزلٍ عن هذا كله ؛ فإن وفاة أمّه التي كان يحبها حبا شديدا تركت في نفسه أثرا من الحزن لا يلبى ، وملأت فضاء حياته همّاً ونكدًا ، وكان يجد بعض العزاء عن ذلك الهمّ الذي نزل به في حنان أبيه عليه وعنايته به ؛ حتى تزوج من تلك المرأة اليونانية وأسلم

إليها نفسه وقلبه . ففقد بفقد عطف أبيه عليه وحنان أمه كل أمل له في الحياة ، وأصبح يشعر في نفسه بذلة اليتم التي يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قلوباً راحمة ولا أفتدة عاطفة ؟

فكان يُخاطرُ بنفسه في المعارك التي يحضرها مخاطرة اليائس المستقل راجياً أن يُريحه الموتُ من هُوم نفسه وآلامها ، فزَجَّ بنفسه ذات يوم في معركة كبرى استبسل فيها استبسالاً عظيماً ، واستقتل معه جنده يطلبون الموت حيث يطلبه ، فلم يبلغ أمنيته التي يتمناها ، ولكنه انتصر في تلك المعركة انتصاراً باهراً ، وأنقذ من يد الترك « شعب »^(١) تراجان ، وكان الملجأ العظيم لهم ، والمركز الأكبر لحركاتهم وأعمالهم .

وإنه ليتأثر الجيش المنهزم ويشد في أعقابه^(٢) إذ لمح على البعد فارساً تركياً قابضاً يده على شعر فتاة مسكينة ، يُريدُ اقتيسارها وإكراهها على الركوب معه وهي تمتنع وتتأني^(٣) وتُحاول الإفلات من يده ، فيضربها بسوطه ضرباً مؤلماً وجيعاً ، فأزعجه هذا المنظر وآلمه

(١) الشعب (بكسر الشين) : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين الجبلين .

(٢) يتأثر : يتبع الأثر . والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر القدم والمعنى أنه يتعقب الفارين والمنهزمين .

(٣) تتأني : تشد في الإباء .

فرکضَ جَوَادَهَ حَتَّى أَدْرَكَ ذَلِكَ الْفَارِسَ فَضَرَبَهُ عَلَى هَامَتِهِ بِسَيْفِهِ ضَرْبَةً قَضَتْ عَلَيْهِ ، فَرَكَعَتْ الْفَتَاةُ بَيْنَ يَدَيْهِ ضَارِعَةً تَسْأَلُهُ أَنْ يُنْقِذَهَا مِنْ شِقَاقِهَا وَيَقُودَهَا مَعَهُ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ ، فَرَأَى لِحَالَهَا وَأَحْزَنَهُ مَنَظَرُهَا دُونَ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا ، فَأَرَدَفَهَا خَلْفَهُ ^(١) وَرَكَضَ بِهَا حَتَّى بَلَغَ مَوْضِعَ الْحَيَامِ ، فَتَرَكَهَا بَيْنَ الْأَسْرَى وَعَادَ مِنْ تِلْكَ الْمَوْقِعَةِ ظَافِرًا مَنصُورًا ، يُهَنِّئُهُ الشَّعْبُ وَيَهْتَفُ لَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَمُرُّ بِهِ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْقَلْعَةِ الْكُبْرَى فَدَخَلَ عَلَى أَبِيهِ وَالْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَعْلَامَ الَّتِي غَنِمَهَا فِي الْمَعْرَكَةِ ، فَأَمَرَ بَرَانِكُو مِيرَ بِقَتْلِ الْأَسْرَى ، وَكَانَ ذَلِكَ شَأْنَهُ فِيهِمْ كَلِمًا قُدِّمُوا إِلَيْهِ ، حَتَّى جَاءَ دَوْرُ الْفَتَاةِ ، فَجَحَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَدَّتْ إِلَيْهِ يَدَهَا مُسْتَغِيثَةً تَطْلُبُ الْعَفْوَ وَتَقُولُ لَهُ : إِنَّهَا فَتَاةٌ نُورِيَّةٌ ^(٢) مَسْكِينَةٌ لَا شَأْنَ لَهَا فِي الْحَرْبِ وَلَا عِلَاقَةَ لَهَا بِأَهْلِهَا ، وَإِنْ أُمِّهَا بَاعَتْهَا مِنْذُ عَامَيْنِ مِنْ جُنْدَى تُرْكِيٍّ أَسَاءَ عَشْرَتَهَا وَعَذَّبَهَا عَذَابًا أَلِيمًا حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ لَهَا هَذَا الْفَتَى الْكَرِيمَ فَاسْتَنْقَذَهَا مِنْ يَدِهِ - وَأَشَارَتْ إِلَى قُسْطَنْطِينِ .

فَرَكَعَ قُسْطَنْطِينُ بِجَانِبِهَا وَسَأَلَ أَبَاهُ الْعَفْوَ عَنْهَا وَقَالَ : إِنِّي قَدْ أَنْقَذْتُ حَيَاتَهَا بِالْأَمْسِ فَأَنْقِذْ أَنْتَ حَيَاتَهَا الْيَوْمَ وَاجْعَلْهَا حِصَّتِي الْوَحِيدَةَ

(١) أَرَدَفَهَا : أَرْكَبَهَا وَرَاحَهُ ، عَلَى رَدْفِ فَرَسِهِ .
(٢) النور : جِنْسٌ مِنَ النَّاسِ كَثِيرُ التَّنْقُلِ يَعِيشُ عَيْشَ الْبَدْوِ وَيَمْتَنُّ الْمَهَنَ الدُّنْيَا وَيَعِيشُ كَثِيرٌ مِنْهُ فِي وَسْطِ أَوْرَبَا ، وَمِنْهُ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَسْمَى فِي مِصْرَ « الْفَجَر » .

من الغنيمة ، وأعدك أنى لا أطلبُ غَنِيمةً سواها ، فأحفظ ذلك قلب
الأميرة بازيليد زوج أبيه ^(١) ، وكانت حاضرةً تسمعُ حديثه فنظرت إليه
نظرةً الأزديراء والاحتقار - وكان هذا شأنها معه كلما التقت به - وأنشأت
تنعى عليه اهتمامه بشأن فتاةٍ ثورية راقصةٍ طريفةٍ غابت وفلوات ، وربيبة
حاناتٍ ومُعسكرات ، وقالت له : لقد كان جديراً بك وأنت ذلك الجنديُّ
الشريف سليلُ ذلك القائد العظيم والأمير الجليل أن تُتلقى بمثلها إلى حارسٍ
من حراسِ بابك أو جنديٍّ من جنودك يتلهى بها كما يتلهى الكلب بالعظمةِ
المطروحة تحت أرجله ، بدلا من أن تصل حياتك الشريفة الطاهرة بحياتها
الدينية الساقطة !

فثارت ثورة الغضب في نفسه وأضغنه ^(٢) عليها هذا الرياء الكاذب
والشرف المتكلف ، وكان يعلم من شؤون نفسها وخبايا قلبها ما لا تظنُّ
أنه يعرف شيئا منه ، فنظر إليها نظرة شرراء ملتبته ، وقال لها وهو
يعلم أن ما سيقوله سيغضبها ويؤلمها ويملاً صدرها غصة وحنقا : إن الله لم
يخلق الضعفاء والمساكين ليكونوا مُراباً لنا تدوسه أقدامنا وتطؤهُ نعالنا
كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولم يمنحنا القوة والعِزةَ لنتخذ منها أسواط
عذاب نمزقُ بها أجسامهم ، ونستنزف بها دماءهم . وكل ذنوبهم عندنا

(١) أحفظ قلبها : ملاءة حفيظة .

(٢) الضغن : الحقد .

أنهم أذلاء مستضعفون لا يملكون من القوة والعزة مثل ما نملك ولا يذودون عن أنفسهم بمثل ما ندود .

وأحسب أنهم لو كانوا أقوياء أو أعزاء مثلنا : أو أعز وأقوى منا ، لحفناهم وأتقينا جانبهم ونظرنا إليهم بعين غير العين التي ننظر بها إليهم اليوم ، لأن القوى الذي يتنمر^(١) على الضعفاء لابد أن يكون جباناً ذليلاً أمام الأقوياء .

إننا الآن في حرب مع عدوٍ قاهرٍ جبارٍ ننقم^(٢) منه جورَهُ وظلمه واستضعافه إيانا وأستطالته علينا بقوّته وكثرته ؛ لجدير بنا ألا نفعل ما ننقمه منه ونأخذه به ؛ عسى أن يرحمنا الله وينظر إلينا بعين عدله وإحسانه ، وينتصف لضعفنا من قوّته وقلّتنا من كثرته .

إننا لا نحمل هذه السيوف على عواتقنا^(٣) لنقتل بها النساء والأطفال والضعفاء والعزل الذين لا سلاح لهم ولا قوّة في أيديهم ، بل لنقارع بها الأبطال والأكفاء في ميادين الحروب ومواقف النزال .

إنى لا أعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب الفضيلة وإن هذه البائسة المسكينة التي تحتقرونها وتزدرونها لم تصنع ذنبها

(١) يتنمر : يصطنع طباع الذر .

(٢) ننقم : نكره .

(٣) العاتق : الكتف .

بيدها ، ولا سَعَتْ إليه بقدمها ، بل هكذا قُدِّر لها أن تَلْبُت في هذا
المتبَت القدر الوبي ، فويَدَّت وقدرت ، وليس في استطاعتها أن تعود إلى
العدم مرة أخرى لتَخْلُق نفسها خَلْقاً جديداً في جورٍ غير هذا الجور وتُرَبِّه
غير هذه التربة ، فاهو ذنبها وماهى جريمتها وأى حيلة لها في هذا المصير
الذى ساقها القدرُ إليه ؟

إنما الإثمُ على الذين يقترفون الذنوب وهم يعلمون مكانها من
الرذيلة ومكان أنفسهم من اقترافها ويَحُولون زمامَ حياتهم بأيديهم من
طريق الخير إلى طريق الشر ، وإشاراً لها وافقتانا بها ؛ أولئك هم
الآثِمُونَ المذنبون الذين يجدُّ بنا أن نقُوَّ عليهم ونشتدَّ في مواخذتهم ،
أما الضعفاء والمساكين الذين لاحول لهم في شأنِ أنفسهم ولا حيلة ،
فهم بِرَحْمَتِنَا وعطفنا أحقُّ منهم بِعِتْبِنَا ولومنا ، فإن وجدنا السبيل إلى
معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدة الشقاء التى هَوُوا فيها
فذاك أو لا فلندعهم وشأنهم تذهبُ بهم المقاديرُ حيث شاءت من
مذاهبها ولا نَزِدُّهم بكبرياتنا واستطالتنا بؤساً على بؤسهم ، وشقاء
على شقائهم .

إننا ما أَصَبْنَا بما أَصَبْنَا به من هذه النكبة الشعواء والداهية
الدَّهِيَاء التى نزلت بنا منذ عشرة أعوام ما تُفارقنا ولا تَهْدأ عنا ،
إلا من ناحية كبرياتنا وخيلاتنا واعتدادنا بأنفسنا في جميع شؤوننا

وأعمالنا، واحتقار غنينا لفقرنا، وقوينا لضعفنا وسيدنا لمُسودنا، فسَلَطَ
اللهُ علينا ذلك العدوَّ القاهر الذي لا يَعتمدُ في جميع شؤونه ومواقفه إلا
على قوته وأيده^(١)، لأننا لم نعتمد في يومٍ من أيام حياتنا في جميع صلواتنا
وعلائقنا إلا على قوتنا وأيدنا، والجزء من جنس العمل، وما ظلمهم الله
ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، ﴿

فاصفر وجهه بازليد وآربدت شفتاها وكأنما خيل إليها أنه يلزها
وِيرِيهَا^(٢) وَيُشِيرُ في حديثه إلى ماضيها القديم وحوادث صيбаها
السالفة ، فصمتت ولم تقل شيئا ، إلا أنها اتتحت ناحية وأخذت تبكي
وتتعب — والدُموعُ هي السلاحُ الوحيدُ الذي تعتمدُ عليه المرأةُ في
جميع شؤنها وعلائقها — فعظم الأمرُ على برانكومير وأكبر^(٣)
أن يُخاطب ولده زوجته المحبوبة هذا الخطاب الجافي الغليظ ، فألقى
عليه باللائمة الشديدة وقال له : إنك لم تسيء إلى نفسك في تنزلك إلى
حماية هذه النورية الساقطة واهتمامك بشأنها بقدر ما أسأت إلى أهلك
في مجابهة زوجته ومعايظتها وسوء الرد عليها بهذه اللهجة الشديدة
القاسية ، ولولا هذه الرايات الحمر التي ألقيتها اليوم تحت قدمي بأهلتها

(١) الأيد : القوة .

(٢) يلزها : يشير إلى عيوبها ، ويريبها : يضعها موضع الريبة .

(٣) أكبر الأمر : اعتبره كبيرا .

البيضاء لما اغتفرت لك هذه الجريمة التي اجترمتها ، فاذهب لشأنك ولا
تعد إلى مثلها .

وكذلك تم لقُسطنطين ما كان يريد من إنقاذ تلك الفتاة المسكينة من
يد الموت بعد ما أنقذها من يد الشقاء ، فذهب بها إلى الجناح الذي
يسكنه من القلعة ، وجلس إليها يحادثها في شأنها وشأن ماضيها ، ويسأئلهما
عن دينها ومذهبها ووطنها وقومها ، فلم يرَ من بين يديه إلا فتاة ساذجة
جاهلة لا تعرف لها وطناً ولا بيئة ولا تدينُ بدين من الأديان ولا مذهب
من المذاهب ، ولا تفهم من شؤون حياتها إلا أنها فردٌ مُبهمٌ من أفراد
هذا المجتمع المائج المضطرب ، تمتدُّ بامتدادِه وتنحسرُ بانحساره ،
لا تعرفُ الآمال . ولا تفكرُ في المستقبل ، ولا تحفلُ بالماضي ، ولا
يتسعُ عقلها لأكثر من الساعة التي تعيشُ فيها ، ولا تتألم إلا كما يتألم
الأطفال ولا تفرحُ إلا كما تفرحُ المجانين ، وقد صفت نفسها من كل
شائبة من شوائب النفوس البشرية ، فلا تحقدُ ولا تغضبُ ولا تكرهُ
ولا تحسدُ ولا تطمعُ ولا تتطلعُ ولا تشغلُ ذهنها بترتيب الصور
والأفكار واستنتاج النتائج من المقدمات ، فأصبح ينظر إليها نظر الأب
الرحيم إلى طفله اللاعب بين يديه ، وأصبحت تجلسُ تحت قدميه جالسة
الكلب المخلص تحت قدمي سيده ، لاتحدثه حتى يحدثها ، ولا ترفعُ نظرها
إليه حتى يناديها ، وكان يقولُ في نفسه كلما نظر إليها وإلى سداجتها

وطهارتها وبلاغة عقلها وغفلته : أهكذا قُضى على الإنسان في هذه الحياة ألا تخلص نفسه من شوائب الرذيلة والشر حتى يُسَلِّب عقله وإدراكه قبل ذلك ، وألا يُمنح مقداراً من الصدق والشرف حتى يُحرَم في مقابله مقداراً من الفطنة والذكاء ، فليت شعري هل عجزت الطبيعة عن أن تجمع للمرء بين هاتين المزييتين : مزية العقل الذي يعيش به والخلق الذي يتحلَّ بحليته ، أو أن الله في ذلك حكمة لانهلها ولا نُدرِكُ كُنْهها ؟

وكأنما كان يشعرُ في نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاة المسكينة بين هاتين الفضيلتين ، وأن يُصوغ من نفسها ذلك المثال الغريب الذي عجزت يدُ الطبيعة عن صياغته . فبدأ يهتمُ بشأنها اهتماماً عظيماً . يتبسَّط معها في الحديث تبسُّط النظر مع نظيره ذاهباً معها في كل وادٍ من أوديته ، معنياً كلَّ العناية بتثقيفها وتعليمها وإنارة ما أظلم من بصيرتها ، ولكن بأسلوب غير الأسلوب الذي كان يُعلِّمه به معلمه في المدرسة ، فأرشدتها إلى وجود الله لا من طريق البراهين الجدلية والقضايا الكلامية ، بل عن طريق الآثار والمصنوعات الناطقة بجمالها ولطف تكوينها عن قدرة صانعها وإبداع خالقها ، وأرشدتها إلى الفضيلة من طريق الفضيلة نفسها لا من طريق الترغيب في الثواب والتخويف من العقاب ؛ ليكون أدبها أدب نفس لا أدب درس ، ولتنتزع الفضيلةُ

بنفسها امتزاجاً لاتزعزعه عواطف اليأس ولا عوامل الرجاء ، فكانت تعجب لحديثه ومراميه عجباً شديداً ، وتجده فيه من اللذة والغبطة ما لاتذكر أنها شعرت بمثله في حياتها في حديث أى متحدث يتحدث إليها ، وتعجب أكثر من كل شئ لتنزل مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف إلى مجالستها ومُشافقتها^(١) والنزول عن حُكمها فيما يُغضبها ويرضيها ، فقالت له مرةً وهى تحاوره : إنك تحدثنى يامولاي كأنك لاتعرف من أنا . قال : إني أعرفك كما تعرفين نفسك ، وأعرفُ أنك أختى فى الإنسانية وهى الأمُ الزموم^(٢) التى لا يستطيع أحد من بنيها أن يمُت إليها^(٣) بأكثر مما يمُت به إخوته ، وما للأخت ملجأً تلجأ إليه فى شدتها غيرُ عطف أخيها وحنانه عليها ، قالت : وليكنك تعلم أنى فتاة مذنبه ساقطة . قال : كلُ الناس مذنبون آثمون ، وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها وأساليب اقرارها . قالت : لم أر فى حياتى مذنبات حتى اليوم عفيفاً قطُ ابتسم فى وجهى ! قال ذلك لأن الناس مرادون مخادعون يزعمون لأنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم ، فهم يحتقرون المذنب ويزدرونه ، لا لأنهم أطهارُ أبرياء كما يزعمون ، بل ليوهموا الناس أنهم غير مذنبين ، ولو أنهم تكاشفوا

(١) الثفنة - بكسر الفاء - : الركبة . وثافنه : جالسه ركبة لركبة ، أى مواجهة .

(٢) الروم : العطوف .

(٣) يمُت : يتوسل وينتسب .

ونصارحوا وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتتاركوا^(١) وتهادنوا،
ولما أخذ أحد منهم أحداً بذنب ولا جريرة!

وكذلك أصبحت ميلتزا العزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه وآلامه،
فقد وجد بين جنبيها تلك النفس الطاهرة البريئة التي طالما نشدها قبل
اليوم فأضامها^(٢) وتطلبها فأعياء طلابها؛ ووجد في صدرها ذلك القلب
المحب المخلص الذي بكاه وندبه ندباً شديداً يوم ماتت أمه، ويوم تولى
عنه حنان أبيه، وكان يتحدث معها في كل شيء من شؤون الحياة
دقيقها وجليلها، ويقضى إليها بكل خبيثة من خبايا نفسه؛ إلا ذلك
الهم العظيم الذي كان يُعالجه في أطواء نفسه وأعماقها؛ ويُكابد منه
ما يُقلق مضجعه يصل ليله بنهاره؛ وهو استحالة حال أبيه^(٣)
وانتقاض قلبه عليه، وانقياده ذلك الانقياد الأعمى إلى تلك الفتاة
اليونانية الدخيلة التي لا يعنينا من شأنه سوى أن تتخذ من عاتقه
سُلماً تصعد عليه إلى سماء المجد؛ ثم لا نبالي بعد ذلك أن تدفعه بقدمها
بعد بلوغ غايتها فيسقط في الهوة التي قدر له أن يهوى فيها؛ إلا أن
ميلتزا الذكية بفطرتها؛ المتفانية في حبها وإخلاصها؛ لم يكن يفوتها
أن ترى بعين فطنها وذكاها في تلك الزاوية المظلمة من زوايا قلبه؛
ذلك الهم الخفي المسكن^(٤) وكان يساعدها على فهمه واستكناهه^(٥)

(١) لترك كل منهم صاحبه . (٢) لم يهتد إليها . (٣) استحالة: تغير .

(٤) المستور . (٥) معرفة كنهه وحقيقته .

تلك الأحاديث التي كانت تسمعها تدورُ من حين إلى حين بين القائد وزوجته عندما كانا يمرّان بها أو يقفان على مقربة منها وهي جالسة تحت بعض الجدران أو في ظلال بعض الأشجار لا يخفّان بها ولا يلتقيان لها بالا ، فقد سمعته مرة يقول لها : إني أحبك يا بازيليدُ حبّ المرء لنفسه التي بين جنبيه ، ولقد عشتُ حياتي كلّها قانعاً من العيش بتلك اللذة الوحشية الدموية ، لذة القتل والأمر وسفك الدماء وتقطيع الأوصال حتى رأيتك تتطلّعين إلى تاج الملك وتشتهين أن تضعيه فوق رأسك فأحييته من أجلك ، وأصبحتُ لا أقترح على الدهر أمراً سوى أن أرى تلك الجهة اللامعة المضيئة يتلألاً فوقها ذلك التاجُ المرصعُ البديع ؛ فلا تياسى منه ولا تقنطى ، واعلمي أنني سأتيك به وإن كان كوكبا نائبا في آفاق السماء ، أو دُرّة راسبة في أعماق البحار ، وسمعتها مرة تقول له : ما أجل وجهك يا برانكومير ؛ وما أبدع ضيائه ولآلأه ، وما أنفع هذه الشعور البيضاء التي تدور به دورة الهالة بالقمر ؟ وما أجل تاج الملك يوم يوضع على رأسك فتتحدّ الأضواء الثلاثة جميعها ويموج بعضها في بعض فتراى في أجل شكل وأبدع منظر ؟ ! إنك ستكون ملكا يا مولاي ، وستكون أعظم ملوك العالم شأنا وأرفعهم مقاما ؛ وستجتمع فوق عرشك الرفيع الأجداد الثلاثة : مجد النسب ؛ ومجد الحروب ، ومجد الملك ؛ وقد ألقى الكاهن في نفسي كلمته التي تنبأ لي

(٣)

بها ، وما هو بالكاذب ولا المجنون فكُنْ على ثقة من صدقه وحكمته ،
واعلم أنه ليس بينك وبين التاج إلا خطوة واحدة ، فاخطأ بهمة
وعزيمة تبلغ الغاية التي تُريد ، وسمعتها مرة تقول له : إنني لا أخاف على
أملنا أحداً من الناس سوى ولدك قسطنطين ؛ فقد علمتُ أمس من بعض
أصدقائه أنه يُسكِرك عليك كلَّ الإنكار هذا المسعى الذي تسعاه اليوم ،
كما سمعتُ أنه يُثبِّطُ الناس عنك ويُزحزحهم من حولك ويُلقِي في قلوبهم
اليأس من نجاحك ؛ ولقد حدثني عنه بعضُ الناس أن ذاكرًا ذكر له
مرة ولاية العهد مُهنئًا إياه بها ، فغضب واحتد وتغيَّظ عليه تغيظًا شديدًا
وقال له : إنني جُنْدِيٌّ ولدتُ في ساحة القتال وسأَموت فيها . وإن كلمة
ك هذه الكلمة المؤثرة يقولها أميرٌ مطاعٌ في الجيش والشعب كولدك ؛
لا بدَّ أن تترك أثرًا سيئًا في نفوس الناس جميعًا وتفتُّ في عضد
أنصارك وأعوانك ؛ وربما كانت سببًا في القضاء على آمالك وأمانيك
ولا أعلمُ لخطته هذه سببًا سوى ذلك البغض الشديد الذي لا يزال
يُضمره لي في أعماق قلبه منذ دخلت بيتكم حتى اليوم ، وما أذنبت
إليه ذنبًا ولا أسلفت عنده جريرة ، فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته
ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يراني جالسة على العرش بجانبك
أستظل بظلِّ نعمتك وأشاركك في التمتع بمجدك وسلطانك ؛ فقاطعها
الأمير وقال لها : لا تُصدقِي يا بازيليد شيئًا مما يقولون ؛ فقسطنطين

أبرئني وأعظمُ حُجاً وإخلاصاً من أن يعترضَ سبيلَ رغبةٍ يعلمُ أني أرغبها
وأصبوُ إليها ، ولا أعلمُ أنه يُبغضُك أو يُضمرُ لك في نفسه شيئاً من الشر
الذي تذكرين ، بل هو يحترمك ويُجلك إجلالَهُ إياي ، ويحبُّ لك من الخير
ما يحبُّ لي ولنفسه ولا يُؤثر على مرضاتنا شيئاً .

وكذلك ظلت ميلتنا تسمع أمثالَ هذه الأحاديث فتعلمُ منها ما يدور
بنفسي هذين الشخصين الطامعين . وتعلمُ أن هذا الذي يدور بنفسيهما إنما
هو علة ذلك الهم الذي يُعالجه قسطنطين في أعماق قلبه ويكابهده ؛ ولكن
لم يخطر ببالها مرةً أن تنقل إليه شيئاً مما سمعته ، إعظاماً له وإجلالاً ،
وضناً بنفسها وبأدبها أن تفتاحه في أمر لم يشأ هو أن يفتاحها فيه .

النتائج

جاء اليوم المعين لاجتماع الجمعية الوطنية للنظر في انتخاب الملك الجديد
فنظرت في المسألة نظراً خالصاً مجرداً عن الميل والهوى ، فرأت أن العدو
لا يزال على الأبواب ، وأنه لا يزال قوى الشكيمة صعب المراس ،
وأن الوطن يحتاج إلى الأمير برانكوميرو قائداً أكثر مما يحتاج إليه
ملكاً ؛ وأن الأسقف دأتين ، أعظم رجال المملكة عقلاً وأسماء إدراكاً

وأقوام سلطاناً على نفوس الجيش والشعب فقررتْ تقليده ملكَ البلقان ،
وأعلنت قرارها في جميع أنحاء المملكة ، فقابله الشعب بالرضا والتسليم ،
ولم يختلف عليه إلا العددُ القليل من أشباع القائد وأنصاره .

ثم أقيمت حفلة التتويج بعد أيام فحضرها جميع وجوه المملكة
وعيونها ، ورجالُ السياسة والجيش ؛ ما عدا القائد برانكومير ، فلم
يأخذهُ الملكُ بهذه الهنة ، بل أعتبه^(١) وأعطاه من نفسه الرضا ، ولم يقنعْ
في أمره بذلك حتى أعلن عزمه على السفر إلى الحدود لزيارته في قلعته ،
وما لبث أن سافر في جمْع من حاشيته وجنده ، وكانت رسله قد تقدمته
لإنباء القائد بمقدمه ، فامتعضَ لذلك وتمرمر^(٢) ، وكانت تحدّثه نفسه
أن يسافر إلى بعض الجهات حتى لا يستقبله عندُ قدومه ، لولا أن
أشارت عليه بازليدُ بغير هذا الرأي ، فأذعن لها راغماً ، ونزل لانتظاره
أمام باب القلعة حتى حضر ، فياه الملكُ حين رآه تحيةً الإجلال والإعظام
وعانقه عناقاً طويلاً ، وقال له : أما الملكُ الجالسُ على عرش البلقان
وصاحبُ الأمر والنهي فيه فهو أنت يا برانكومير ، أما أنا فإني خادمك
الأمينُ المخلصُ القائمُ بتنفيذ أوامرك وتجييش الجيوش لك وإمدادك

(١) الهنة : الذنب الصغير . وأعتبه : لم يغضب لفعلته واقتصر الأمر بينهما على العتاب يقبعه الرضا .

(٢) تمرمر : اهتزمة الغضب .

بما تحتاجُ إليه من العُدَّة والمؤنَّة ، واعلم أن الآمَّة لم تضن عليك بالعرش والتاج ولا رأت أن أحداً أجدر بهما منك ، ولكنها ضنَّت بك أنت - وأنت حَضَنُها المنيع ودرعُها الواقية وبطلُها الذي لا يُغنى غَناءه في موقعة أحدٍ - أن يشغلك شاغلُ المُلِك عن شأنك الذي أنت فيه والذي نصبتَ له نفسك طوالَ حياتك ، فأثرتَ بقاءك في هذه القلعة تحميها وتحمي المملكةَ بحمايتها ؛ فإن لم تكن المُلِك الجالس على عرش «فيدن» ، فأنت المُلِك المتبَوِّى عرش الأفسدة والقلوب . واعلم أنني ما قدمتُ إليك مَقْدَمِي هذا لأعْتَذِرَ عندك من ذنبٍ أذنبتهُ إليك ؛ أو لَأَتَوَجَّعَ لك من كارثة نزلت بك ؛ لأنى أعلم أنك أجلُّ وأرفعُ من أن تُعْتَبَرَ عبء المُلِك وهمه نعمة تأسفُ على فَقْدِها بل جنتُ لأُبارِكَ وأُمسِّحَكَ وأدعو لك الله أن يُمِذِّكَ بِرُوحٍ من عنده حتى يَتِمَّ لنا على يدك النصرُ الذى نرجوه لأنفسنا ؛ فبِأَمْنِ البلقانُ أَبَدَ الدهر أن تُخْفَقَ على ربوعه بعد اليوم راية غير راية المسيح أو يَرَنَّ في أجوانه صوتٌ غير صوت الله .

ثم تقدَّم نحوه ووضع يده على رأسه يُباركه ويُصَلِّي له ، وبرانسكومير يتميَّزُ غِيظاً وَحَنَقاً ؛ ولكنه يَتَجَلَّدُ وَيَسْتَمْسِكُ ؛ حتى فرغ الأسقف من شأنه ؛ فلم يَرُبْدَا من أن يستقبلَ حفاوته بمثلها ؛ فقد إليه يده وهنُّاه بالملك واعتذر إليه من تقصيره في حضور حفلة التتويج ، فقبل عُذْرَه

وقضى بقية يومه عنده هائلاً مغتبطاً لا يرى إلا أنه قد أَرْضاه ومخاض ذلك العتب من نفسه .

ثم عاد بموكبه راضياً مسروراً فشيَّعه القائدُ إلى ضاحية المدينة ولبث واقفاً مكانه ساعةً ينظر إلى ذلك الموكبِ الفخم العظيم ؛ ويسمع موسيقاه الشجيَّة الجميلة ؛ حتى غاب عن بصره ؛ فانقلب إلى قصره نازراً مُهتاجاً يصبحُ ويَجَارُ ويَهْدِي هذيان المحمومين ؛ حتى بلغ عُرفته الخاصة فوقف بجانب نافذةٍ عاليةٍ مُشرقة على الجماهير الغادية والرائحة في طُرقتها ومذاهبها ، وأنشأ يحدثُ نفسه ويقول :

تبَّالك أيها الشعب الخائن الغادر ، لقد جازيتني شرَّ الجزاء على عملي ، وكفرت بنعمتي التي أسديتها إليك ، ويدى التي اتخذتها عندك ، أيامَ كنت أسهر لنتام ، وأشقى لتسعد وأقضى ليالي الطوال سجيناً في قلعتي لا أبرحها ولا أُنقلُ منها لأدبرَّ لك أمر الحماية التي تحميك ونصون أرضك ودبارك ، وأنت لاهٍ لاعب هائى مغتبط ، يمرح عاقبتك في منازهمهم ومسارحهم ليلهم ونهارهم ويُقيم خاصتك حفلات الرقص والغناء في قصورهم وأنديتهم ، فكان جزاؤى عندك أن ضننت على بالعرش الذى أنا عماده وملاكه وحاملُ قوائمه وعمَّده ، وآثرت به كاهناً مأفوناً^(١) لاشأن له في حياته سوى أن يمسح رءوس الأطفال

(١) المأفون : الضعيف الرأى ، أو الاحمق ؛

وِيُهمهم حَوْلَ أُسْرَةِ الموقى ، فبئسَ مَا جَرَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ مِنَ الويلِ فِي
فَعَلَّتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ، وَبُدِستَ السَّاعَةُ الَّتِي رَأَيْتَ فِيهَا هَذَا الرَّأْيَ الْفَائِلَ
الْخَطْلَ (١) ، لَقَدْ فَلَّكَ (٢) بِيَدِكَ سَيْفَكَ الَّذِي كَانَ يَحْمِيكَ وَيَصُونُكَ ،
وَأَطْفَأَتْ جَذْوَةَ الْحِمَاسَةِ فِي صَدْرِ قَائِدِكَ الَّذِي كَانَ يَزُودُ عَنْكَ وَعَنْ
عَرْصَتِكَ ، وَيَحْمِي أَرْضَكَ وَدِيَارَكَ ؛ فَابْتَغِ لَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ قَائِداً يَتَوَلَّى
حِمَايَتَكَ وَصِيَانَتَكَ ، أَوْ فَاطِلِبِ إِلَى أَسْقُفِّكَ النَّقِيِّ الصَّالِحِ الَّذِي تَوَجَّهَتْ بِيَدِكَ
وَاخْتَرْتَهُ بِنَفْسِكَ لِنَفْسِكَ أَنْ يَسْتَنْزِلَ لَكَ بِدَعَاوَاتِهِ النَّصْرَ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ
وَلِأَنَّهُ لَيُرَدِّدُ فِي مَوْقِفِهِ أَمْثَالَ هَذِهِ السَّكَلَمَاتِ وَيَنْفُثُ سُمُومَ الْحَقْدِ وَالشَّرِّ
عَلَى الْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ ، إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ الْأَمِيرَةُ بِاسْمَةِ مُتَطَلِّقَةٍ تَخْتَالُ فِي حُلَاهَا
وَحُلَاهَا ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ وَقَالَتْ لَهُ : أَرْفُقْ بِنَفْسِكَ يَا بَرَانِكُومِير . وَاعْلَمْ
أَنْ نُبُوءَةَ السَّكَاهِنِ لَا تَكْذِبُ وَلَا تُخَيِّبُ وَأَبْشُرْكَ أَنَّكَ سَتَكُونُ بَعْدَ
شَهْرِ وَاحِدٍ مُلِكًا عَلَى الْبَلْقَانِ ، وَلَا تَسْأَلْنِي كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ! فَدهَشَ
لَأَمْرِهَا وَحَاوَلَ أَنْ يَسْأَلَهَا عَنْ مَعْنَى كَلِمَتِهَا وَمَاتَاهَا فَلَمْ تَمَكِّنْهُ مِنْ ذَلِكَ ،
لَأَنَّهَا تَهَاوَنَتْ عَلَيْهِ (٣) وَاعْتَمَقَتْهُ وَوَضَعَتْ عَلَى فَمِهِ قُبْلَةً شَهِيَّةً أَطْفَأَتْ بِهَا
جَذْوَةَ حِدَّتِهِ وَغَضَبِهِ ، ثُمَّ أَفْلَتَتْ مِنْ يَدِهِ وَعَادَتْ أَدْرَاجَهَا .

(١) الْفَائِلُ : الَّذِي يَخْطِئُ فِي فِرَاسَتِهِ ، الرَّأْيُ الْخَطْلُ : الْفَاسِدُ الْمُضْطَرِبُ .

(٢) فَلَّكَ السَّيْفَ : ثَلَّتْ حِدَّتَهُ .

(٣) التَّهَانَةُ : السَّقُوطُ .

المؤامرة

اضطجعت بازيليدُ في سريرها وجلست خادمتهُ صوفيا تحت قدميها تروح لها بِمِروحتها وتحدثها حديثَ تلك الآمال الحسن التي لا تزال تتراعى لها في يقظتها وتَحلم بها في منامها ، وإنهما لكذلك إذ قُرع البابُ قرعا خفيفاً ، فعرفت صوفيا من القارعُ وفتحت له ، فإذا «بانكو» الجاسوسُ التركي متسكراً في زى الموسيقىقار المسكين ، فدخل وحي الأميرة تحيةَ الإجلال والإعظام ، ثم أخذ مقعده الذي كان يَقتَعده من الغرفة في كل ليلة ، وأنشأ يضربُ على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القطع التي كان أعدّها منذ عهد طويل ليخلّب بها لبّ تلك المرأة ويستهوئها حتى أتمّها ، فطربت لها طرباً شديداً ، ثم دعت خادمتها فأرسلتها في بعض الشؤون ، فلما خلا بها المكان ألقي الموسيقى قيثارته جانباً وخلع عنه رداء التشكر ، ثم مشى إلى سريرها فجلس بجانبها وقال لها : ماذا تم في المسألة يا بازيليد . فقد طال مقامى في هذا البلد وأخشى أن يرتابَ بي أحد ، وليس في استطاعتي أن أبقى هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأني .

فاعتدلت في جلستها وقالت له : لقد فاتحت الأمير ليلة أمس في المسألة وعرضت عليه مقترحك الذي اقترحتّه ، فأصغى إلى حديثي في مبدل الأمر

ثم لم يلبث أن اكفهر وجهه واكتأب وأبى أن يقبل منى كلمة واحدة في هذا الشأن ، وظل يقاطعني ويعارضني معارضة شديدة فلم أشأ أن ألج عليه مخافة أن يرتاب بي وبمقصدي وأسأتأنف معه الحديث الليلة بعد رجوعه من المعسكر ، وأرجو أن ينتهي بإذعانه وتسليمه . ولا يفكك ياسيدي أن من أصعب الأمور على رجل شريف عظيم مثل برانكومير أن يتحوّل في ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته ، وأن ينقلب فجأة من رجل وطني مخلص يبذل دمه وحياته في سبيل الدفاع عن وطنه والذود عنه ، إلى خائن سافل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه بعرض تافه من أعراض الحياة . فلا بد من مهادنته ومؤاناته " وأخذه بالروية والتؤدة .

قال : ليس في الأمر خيانة ولا دناءة ، ولا بيع وطن ولا أمة فإننا لا نريد أن ندخل بلادكم مستعبدين أو مُسترقّين ، بل أصدقاء مخلصين ، وما خطر ببالنا قط حينما فكرنا في افتتاح بلادكم والنزول بها أن نصادركم في حريتكم الدينية والاجتماعية ، أو نسلب أموالكم وننتهك أعراضكم ، أو نغلق أبواب كنائسكم ومعابدكم ، أو نخرس أصوات نواقيسكم وأجراسكم ، بل لنكون أعوانكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية . والسير بكم في طريق المدنية الأدبية والسياسية حتى تبلغوا

الذروة العليا منهما ولنحميمكم فوق ذلك من أعدائكم المجرّيين الذين
يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها وندفع عنكم شرورهم ومظالمهم .
فنحن أصدقاؤكم المخلصون الأوفياء من حيث تظنّون أننا أعداؤكم
وخصومكم .

فابتسمت بازليد ابتسامة الهُزء والسُخرية . ونظرت إليه نظرة عتب
وتأنيب . وقالت له : إن برانكومير يا صديق ليس موجوداً معنا لنخدعه
بأمثال هذه الأساليب الكاذبة . أما أنا فاني لا أخدع بها ولا أغتر .
لأنى أعلم كما تعلم أنت وكما يعلم الساسة الكاذبون جميعاً أن الفاتحين من
عهد آدم إلى اليوم وإلى أن تُبدل الأرض غير الأرض والسموات .
لا يفتحون البلاد للبلاد بل لأنفسهم . ولا يمتلكونها لرفع شأنها وإصلاح
حالتها والأخذ بيدها في طريق الرقيّ والكمال كما تقول . بل لامتصاص
دمها وأكل لحمها وعرق عظمها^(١) وقتل جميع موارد الحياة فيها . والامة
إن لم تتولّ إصلاح شأنها بنفسها لا تصلحها امة أخرى . مهما حسنت
نيتها ونبل مقصدها . والصالح إن لم ينبت في تربة الامة نفسها ويزهّر في
جوّها ويأثف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم لا ينفعها ولا يجدي عليها .
ويكون مثله مثل الزهرة التي تنقل من مغرسها إلى مغرس آخر فهي
تزهو فيه أياماً قلائل ثم لا تلبث أن تذبل وتذوي .

(١) عرق العظم : أكل ما عليه من اللحم .

فان وجد بين أولئك الطامعين من يذهب في سياسته الاستعمارية
مذهب الإصلاح والتشديد ، فكما يَسْمَنُ صاحبُ الشاةِ شاته ليدبحها
ويأكلها ، وكما يتعهدُ صاحبُ المزرعة مزرعته بالرّى والتسميد ليستكثر
غلاتها وثمراتها .

أما الحزبة الدينية التي تريدون أن تَمُنُوا بها علينا فما أهونها عليكم
ما دامت لا تعطلُّ لكم غرضاً ولا تقف لكم في سبيل مَطْمَع ، وقديماً
كان الفاتحون يَحْدَعُونَ الشعوبَ الجاهلة بإرضائها في شؤون دينها ليسلبوا
شؤونَ دُنياها ويوجِّهونَ نظرَها إلى الشؤونِ الروحيةِ الخالصة ، ليقطعوا
عليها طريقَ النظر في الشؤونِ الماديةِ الحيويّة ، فكان مثلمهم في ذلك مثل
الاص الذي يدُسُّ لمن يريد سرقة مائة مُحَدَّرَةٍ في طعامه لا تكلفه إلا ثمناً
يسيراً ليستولى على الجَمِّ الكثير من دنائره ودراهمه ، على أن القوةَ
الدينية في الأمة أثر من آثار القوة السياسية ، فاذا ضَعُفَ أمرُ الأمة في
سياستها ضَعُفَ أمرُها مع الأيام في دينها ، ولا بقاءَ لدين من الأديان يعيش
تحت سلطان دين آخرَ ويستظل برأيته ، إلا كما يبقى الثلج تحت أشعة
الشمس وحرارتها ، ومن ظنَّ غير ذلك فعلى عقله العَفَاء !

أما حمايتكم إباناً من أعدائنا فليس لنا على وجه الأرض عدوٌّ سواكم
فاحمونا من أنفسكم قبل أن تحمونا من غيركم ، وهَبْ أن المَجْرِبِينَ
أعداؤنا كما تقولون ، فهل يطمعون ، في شيء أكثر مما تطمعون فيه أتم ؟

وهل يُحاولون منا غيرَ هذا الفتح الذي تحاولونه اليوم ؟ وهل من الرأى
أن يهَبَ الإنسان متاعه رجلاً بخِصاة أن يغلبه عليه رجلٌ آخر ؟ أو أن
يذبح نفسه بيده فراراً من ذابح يريد أن يذبحه ؟

إنكم ما جئتم هنا لتَحْمُونَا من أعدائنا ، بل لتَحْتُمُوا بنا من أعدائكم لأنكم
إنما أردتم بامتلاك هذه البلادِ واستعمارها أن تتخذوا من حصونها وقلاعها
وجبالها وأسوارها ودماء أبنائها وأرواحهم وقاية لكم تتقون بها زحف
المجريين عليكم وعدوأنهم على أرضكم .

هذه هي الحقيقة التي لا رَيْبَ فيها ، فإن كنت تريد بما قلته أن تعلمني
ما أُلْقِيَهُ لذلك الرجل الذي انفقنا على خداعه وَخَتَلَهُ ، فإني أحفظ كثيراً
من أمثال هذه الرُّقَى والتعاويد ، فلا حاجة بي إلى سماعها منك ، فلنعمل
في المسألة معاً متكاشفين متصارحين ولتعلم أن الذي أسمى لإعطائك
إياه وتسليمك زمامه إنما هو الوطن بأجمعه : أرضه وسماؤه ، وِبرُّه
وبحره وخيراتهِ وثمراته وحرية أهله وسعادتهم ، وأن الثمن الذي
اتَقَاضَاكَه في سبيل ذلك ثمنٌ بخسٌ ضئيل لا يزيد عن كرسى من الخشب
مَمَّوٍ بالذهب يسميه الجهلاء عرشاً وهو في البلد المغلوب على أمره
المسلوب حرّيته واستقلاله سجينٌ ضيق ، ولولا خدع الحياة وأكاذيبها
لما استطاع الجالس عليه أن يهدأ فيه ساعة واحدة ، فأنا أبيعك هذا
الوطن الثمين وأخذ منك ذلك الكرسي الحقير ، وأنا عالمةٌ بقيمة ما أعطى

وقيمة ما أخذ فلا تحسب أنك تخدعني أو تدَاهِنُنِي^(١) في هذه الصَّفقة ،
وأقسم لك بشرفي وشرفي ، بيزفطية ، لو كان هذا الوطن وطني وكانت
تربته مدفن آبائي وأجدادي لما بعثتك ذرَّة واحدة من ترابه بجميع عروش
الأرض وتيجانها .

فاصفرَ الجاسوس وازبدَ وجهه وقال : إننا ما اجتمعنا هنا لتفسير
معنى الفتوح والاستعمار ، بل لأعرض على زوجك هذا العهد السلطاني
بتقليده مُلكَ البلقان وإلباسه تاجه إن هو تمكنَ من إخلاء التُّخُومِ^(٢)
من حُرَّاسِها وسَهَلَ لجيشنا سبيلَ اجتيازِها ، فان قَبِلَ فذاك ، أولا عُدْتُ
بعد ثلاثة أيام إلى مركز الجيش ورفعتُ الأمرَ إلى سلطانى وقائدى
وعادت الحربُ إلى شأنها الأول أو أشد ، ولا يعلمُ إلا الله متى تنتهى
وماذا تكون عاقبتها ؟

فتناولت منه العهدَ وقالت له : سنلتقى بعد ليلتين أو ثلاث وسأخبرُك
بما تم عليه الاتفاق .

فقام إلى مكانه الأول وأخذ يضربُ على قيثارته بعضَ الأناشيد
الدينية ، وماهى إلا لحظة حتى عادت الوصيفة ، وكان الليل قد انتصف
فاستأذن للانصراف وانصرف .

(١) تغشئ .

(٢) التُّخُوم : الحدود .

الامل

الحب شقاء كله ، وأشقى المحبين جميعا أولئك الذين يحبون بلا أمل

ولا رجاء !

لأنهم يذرفون دموعهم وهم عالمون أنهم يسكنونها في أرض قاحلة
جدباء لا تثبت لهم راحة ولا سعادة ، ويسهرون ليلاليهم وهم يعتقدون
أن ظلماتها لا تنحسر عن فجر منير أو صبح سعيد ويطرقون برءوسهم
في خلواتهم لا ليفسكروا متى تنتهي أيام شقاوتهم أو تبتدئ أيام سعادتهم
خياتهم كلها شقاء لا فرق بين أمسها وغدّها وحاضريها ومستقبلها ، بل
ليفكروا متى يرحلون عن هذه الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها ،
فإن كان لابدّ لنا من أن نذرف قطرة من دموعنا على شقّ في هذه
الأرض ؛ فلنذرفها على والدٍ شكّل ولده في ريعان شبابه ، أحبّ ما كان
إليه ، وألصق ما كان بقلبه من حيث لا أمل له في رجّعه ولا رجاء
في لقائه ، أو عاشق علّم في ساعة ما كان يتوقّعها أن حبيبته قد تزوجت
من غيره وأنها ستسافر اليوم أو غدا إلى وطن ناء لا رجعة لها منه
أبد الدهر ، فوقف أمامها يودّعها وداعا لا يقول لها فيه : إلى الغد
أو إلى الملتقى ؛ ولا يأخذ عليها فيه عهدا أو ميثاقا ؛ بل يضمّت صمتاً تذوب
فيه كبده القريحة ذوّبا حتى إذا غابت عن بصره وانقطع آخر أنارها

رَجَعَ أَدْرَاجَهُ وهو يعلمُ أن لا نصيبَ له في العيش بعد اليوم ، وأنَّ هذا آخرُ عهدِهِ بالحياة - أو فتاةٍ بائسةٍ مسكينةٍ كَتَبَ لها شقاؤها أن يَعلَقَ قلبُها بعظيمٍ من عظماء الحياة المُدِلِّينَ بأنفسهم ومكانتهم ، فلا تستطيعُ الصُّعُودَ إليه في سَمائِهِ ، وليس من شأنٍ مثله أن يهبطَ إليها في أرضها ، فهي تبكيه ولا يشعرُ ببكائها وتهتف باسمه ليلَها ونهارَها ولا يسمعُ نداءها ، ولا يزال هذا شأنُها حتى يوافيها أجلُها فيريحَها .

كذلك كان شأنُ ميلترا ، فإنها أحبت سيدها حُبَّ العابدِ إلهه المعبود ، وافتتنت به افتتاناً كانت تحسبه في ميدانِ أمرها عاطفةً ولأء وإخلاص . فإذا هو لَوْعَةٌ الحب وحرقةُ الغرام . ولكن أنى لها وهي الفتاةُ النوريةُ الساقطةُ المسكينةُ أن تمتدَّ بها مَطْمَعُها إلى ذلك الكوكبِ النائي في سَمائِهِ أو أن تُمتَّ إليه بسببٍ من تلك الأسبابِ التي يُمْتُ بها الناسُ بعضهم إلى بعضٍ ؛ فكانت وهي أقربُ الناسِ إليه أبعدَ الناسِ عنه وأنأهم من مكانه لا تستطيعُ أن تتجاوزَ في موقفها معه منزلةَ الخادمِ من المخدومِ والسيدِ من المسودِ والصَّنيعةِ من صاحبِ النعمة .

وكان يُقلقها أشدَّ القلقِ ويكاد يذيبها حياءً وخجلاً خوفُها أن يطلعَ منها على سَرِيرَةِ نفسها . أو أن يعثرَ يوماً من الأيامِ بتلك اللوعةِ المتأججةِ في صدرها . فيتَهمها في عقلها ويسخرَ بينه وبين نفسه بِتَصَوُّراتِها وآمالِها^(١) . فكانت تفرُّ من نظراته كلما وقعت عليها حتى لا يرى في عينها

(١) الفصحى أن يقال : سخر منه ، واستهزأ به .

أثر الدمع ولا حمرة السهر . وتهرب من الخلوة به جهدها حتى لا يرتاب
في اصفرار وجهها واضطراب أوصالها وذ هول عقلها وجلجلة لسانها
أى أنها كانت محرومة من كل شىء . حتى اللذة الضئيلة التى يتمتع بها أقل
المحبين حظاً وأخيبهم في الحب سهماً . وهى الإفشاء بمكنون صدرها إلى
ذلك الذى تحبه وتعبد . وكان كل ما يعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة
مخلصة وفية تحبه حب العبد الشكور لسيده المنعم . وكان يجد من بلاهتها
وسذاجتها وطهارة قلبها ونقاؤه وصدق لسانها وإخلاص قلبها ملهمة
يتلهى بها عن همومه وأحزانه . ومتمكناً يتسكىء عليه فى ساعات إعيائه
وتعبه . لا يزيد على ذلك شيئاً . فكانت إذا جن الليل وأخذت
الجنوب مضاجعها جلست فى فراشها تساهر الكوكب وتطالع وتزفر
زفات حرى موجعة وهى لا تعلم ماذا تشكو ولم تبكى ؟ لأنها لا تعرف
لها غرضاً ولا غاية ولو استطاعت أن تفهم من شؤون نفسها ما يفهم
الناس من شؤون نفوسهم لعرفت أنها إنما تبكى على أن ليس لها
فى الحياة كما للناس أمل ولا رجاء .

هذا هو الحب الطاهر البرى . الذى لا تشوبه الأغراض والغايات .
ولا تحيط به الريب والشكوك . والذى طالما نشده الناس فى كل
مكان فأضلوه . وذابت قلوبهم حسرة عليه فلم يجدوه ، وأى سعادة فى
الدنيا أعظم من سعادة نفس تجد بين يديها نفساً طاهرة مخلصة تحبها

وقد أبدتها وتمتزجُ بها امتزاجَ الماء بالخمر ، والأريج بالزهر ؟ ولقد ظفّر
قسطنطينُ من تلك الفتاة بهذه النفس المخلصة المتعبدة التي تحزن لحزنه ،
وتفرح لفرحه ، وتغضب لغضبه ، وترضى لرضاه ، ولا تعرف لها وجوداً
منفصلاً عن وجوده ، ولا حياة مستقلة عن حياته ، فكانت منه بمنزلة
المرآة من الوجه : تُقَطَّبُ إذا قَطَّبَ ، وتبتسم إذا ابتسم وتطير فرحاً
وسروراً بانتصاراته ، وتذوب كمداً وحزناً لآلامه وأحزانه ، وتحب
أباه حُبَهُ إياه ، وتنفر من زوج أبيه نفوره منها ، وهو وإن لم يكن يُفاتها
في شأن من شؤونها الخاصة ولا يُفضي إليها سرّاً من أسرار بيته وعلائق
بعض أفرادها ببعض ، إلا أنها كانت تشعر " أن تلك المرأة اليونانية
الدخيلة خطرٌ عظيمٌ على الوالد والولد ؛ بل على الأمة بأسرها ؛ وكان
شعورها هذا يقودها إلى مراقبتها وملاحقتها في كل مكان وترصد حركاتها
وسكناتها عنها تهجمُ منها على ذلك السرّ الهائل الذي تتوهمه توهماً
ولا تعرفه فتكشفه وتمزق عنه الستار ؛ حتى واتاها القدر يوماً من
الأيام فَعَثَرَتْ به ...

(١) انظر التعليق في هامش ص (٧) .

السمر

رجع قسطنطين من بعض غزواته ، فدخل على ميلترا فرآها مُطرقة واجمة ، فلم يُبق لها بالا وخلع رداءه ثم جلس على كرسيه جلسة الراحة والسكون ، وإنه لذلك إذ طَرَقَ مِسْمَعَه صوتُ تلك القيثارة البديعة التي كان يسمعها من حين إلى حين تَصَدِّحُ في قصر أبيه ، فطرب لها طرباً شديداً واقترَّ ثغره بعد عبوسه ، ثم نظر إلى ميلترا وهي جالسة تحت قدميه ، فرآها مصفرةً مُعْبِرةً الوجه ذاهلةً ، كأن نكبةً من النكبات العظام قد نزلت بها فعجبَ لامرأها وقال لها : ألا تطربين معي ياميلترا لهذه النغمات الشجية البديعة ؟ فرفعت رأسها إليه وكأن دمة لامعة تترقق في عينيها ؛ وقالت له لا يامولاي ! فدهش لقولها وقال : ولم ؟ قالت لأنني لا أحبها ! قال : ولم لاتحبينها ؟ قالت : لأنني لأحب صاحبها ، قال : وهل تعرفينه ؟ أليس هو ذلك الرجل البائس المسكين الذي يختلف إلى الأميرة من حين إلى حين ليُسمعها أناشيدَ قومها وأغانيتهم فتعود عليه ببعض ثَوَالِها ؟ قالت : إنه ليس بسائل ياسيدي ولا مسكين ، بل هو الضابط العظيم إبراهيم بك أحد قوَّاد الجيش التركي ، فانتفض قسطنطين مذعوراً واستوى في مكانه جالسا وقال : ماذا تقولين ؟ قالت إنني كنت مخدوعةً به قبل اليوم ، حتى

رأيت ليلة أمس واقفاً تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة يُصَلِّي صلاة المسلمين مُطَرِّقاً خاشعاً مستقبلاً قِبَلَهُمْ ، فارتبتُ في أمره ، ثم دَتَوْتُ منه وأنعمتُ النظر في وجهه من خلال بعض الأغصان ، من حيث لا يشعر بمكاني ، فعرفتُه وذكرتُ أنه ذلك البطلُ العظيم الذي كنت أراه في معسكر الجيش التركي لا يزال مُرافقاً للقائد الكبير يسيرُ في ركابه حيث سار ويتنقل معه في غدواته ورؤحاته ؛ وإن غابت عني معرفته فلن تغيب عني معرفةُ تلك الشجّة الهلالية الواضحة في جبينه ، وذلك الخالُ الأسودُ المرتسمُ تحت عينه اليسرى ، بل أعرفه من تلك النغمات الشجية التي يغنيها الآن ...

وهنا توقفت عن الكلام ، واضطربت وكأنَّ كلمة حائرة ، تختلج بين شفثيها ، فعجب قسطنطين لأمرها وسألها ما بالها ؟ فأطرت هنيئة ثم رفعت رأسها فإذا دمةٌ تنحدرُ على خدّها واستمرت في حديثها تقول :

نعم ، إنني أعرفه من تلك النغمات التي كان يدعوني إلى الرقص عليها في خيمته في المعسكر وهو جالس بين صحبه وخُلانِه من قواد الجيش ورؤسائه ، يغنيهم ويطربهم فأرقص أمامهم رقص الطائر المذبوح وفؤادي يتمزق لوعة وأسى ، لا إهنُ ولا أقرُّ ولا أستعفي ولا أعتمر ، مخافة أن يرى سيدي الجنديُّ ذلك مني فيعافيني ، فقد كان يحاسبني على الضعف والعجز والحياء والخجل والتلوم^(١) والاحتشام محاسبة القاضي

(١) لقد سمعتُ ذلك : رأيتُها (١)

(١) التلوم : البطء .

المجرمين على الذنوب والآثام ، فاعذرنى ياسيدى إن بكيت لحظة بين يديك
فانى وإن كنت ولدت فى مهد الشقاء ، ونشأت فى حجر البؤس والآلام ،
فقد كانت تلك الأيام التى قضيتها فى ذلك المعسكر أو فى بؤرة السقوط
والعار ، أشقى أبامى وأعظمها شدة وبؤسا ، لا أذكرها إلا بكيت لذكرها
وأسببت ردائى على وجهى حياء منها وخجلا .
على أننى أحمد الله إليك ، فقد بسطت إلى يد رحمتك وإحسانك ،
واستنقذتنى من مخالب ذلك الشقاء أيا أس ما كنت من الخلاص منه ،
أحسن الله إليك وهون عليك همومك وآلامك .

وكانت تتكلم وقسطنطين لاه عنها بقصة ذلك الجاسوس ، لا يكاد
يشعر بشيء مما حوله ، ثم التفت إليها وقال لها : إذن هو جاسوس
متنكر ؟ قالت : ذلك ما أعتقده يامولاي ولا أرتاب فيه . فظل يدور
فى الغرفة دورة الهائم المختبل^(١) لا يهدأ ولا يتريث ، وظل على ذلك
ساعة ثم انقض بغنة على رداءه فاخطفه وخرج من الغرفة مسرعا ،
فأدركته ميلترا وتعلقت بأطراف ثوبه وقالت له : أين تريد يامولاي ؟
قال : أريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم وأرفع أمره إلى الأمير
ليرى رأيه فيه . قالت : إن القيثارة قد انقطع صوتها ، ولا بد أن
يكون قد ذهب لسبيله ، فدعته وشأنه ، قال : لا بد لي من أن أكشف

(١) المختبل : الذى ذهب عقله .

أمره على كل حال حتى لا يعود إلى هذا المكان مرة أخرى . قالت :
أضرعُ إليك ياسيدي أن تملك نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى
أنتم لك بقية حديثي جَمَدَ في مكانه وقال لها : ماذا عندك بعد ذلك ؟
قالت إن كنت تريدُ أن ترفعَ أمر الرجل إلى أبيك ليعرفَ حقيقةَ
فأعلم أنه يعرفه حقَّ المعرفة ، بل هو أعلم به مني ومنك ! فثار ثأره
وصرخ في وجهها قائلاً : ماذا تقولين أيتها الفتاة ؟ وجرّد سيفه من
غِدرِه وأهوى به عليها ليقبّلها ، فاستخذتْ له ^(١) ومدّت إليه عنقها
وقالت : اضرب يامولاي ، فدعى حلال لك وإن شئت فاستمع مني
كلمة واحدة قبل أن تفعل فإن شرفك وشرف بيتك رهْنٌ بما أقول !
جَمَدَ السيف في يده وظلّ شاخصاً إليها ينتظرُ كلمتها ، فقالت : نعم ، قد
تم الاتفاقُ بين أبيك وزوجتيه وذلك الجاسوس التركي على أن يُخْلِ
أبوك تخوم المملكة من حُرّاسها هذه الليلة ، لتتمكن الجيوش التركية
من اجتيازها ، فإن فعل أصبح في الغد سيّد البلقان ومليكمها . قال :
ومن أين لك علمُ ذلك ؟ قالت : قد سمعتُ الحديث الذي دار بينهم
في هذا الشأن ، ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم يقرأونها ويتداولونها
وما أحسبُها إلا وثيقة الهدد الذي تعاهدوا عليه فإن كنت لا تزال في
رَيْبٍ من ذلك فدوّنك الغُرْفَة المجاورة لغُرْفَة الأميرة فادخلها برفق وهدهد

(١) استخذى : خضع .

وَضَعُ أَذْنَكَ عَلَى خِصَاصِ الْبَابِ^(١) الْمَغْلَقِ بَيْنَهُمَا . كَمَا صَنَعْتُ أَنَا مِنْذُ سَاعَةٍ ،
تَسْمَعُ مَا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ ، وَلَكِ حَكْمُكَ بَعْدَ ذَلِكَ .

فَشَعَرَ قِسْطَنْطِينُ أَنَّ الْأَرْضَ الْفَضَاءَ تَدُورُ بِهِ وَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ
لَبَسَتْ قِنَاعَهَا الْأَسْوَدَ فَمَا يَرَى شِعَاعًا مِنْ أَشْعَتِهَا وَأَنَّ فَرَائِصَهُ تَرْتَعِدُ
وَتَصْطَلُّ فَمَا تَكَادُ تَحْمِلُهُ ، فَتَرَاجَعَ إِلَى جِدَارٍ قَائِمٍ وَرَاءَهُ فَاسْتَدْظَمَ ظَهْرَهُ
إِلَيْهِ حَتَّى هَذَا قَلِيلًا . ثُمَّ مَشَى يَتَحَامَلُ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى دَخَلَ الْغُرْفَةَ الَّتِي
وَصَفَتْهَا مِيلْتِزَا ، وَمَشَى إِلَى الْبَابِ الْمَوْصَدِّ بَيْنَ الْغُرَفَتَيْنِ وَوَقَفَ بِجَانِبِهِ
يَتَسَمَّعُ فَلَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّ الْغُرْفَةَ خَالِيَةً ، ثُمَّ سَمِعَ صَوْتَ
أَيِّسَهُ فَانْتَبَهَ وَتَجَمَّعَ لِلْإِصْغَاءِ ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ لِرُجُلَتِهِ بِصَوْتِ خَافَتٍ
مَتَهَدِّجٍ^(٢) : هَلْ سَافَرَ الرَّجُلُ . قَالَتْ : نَعَمْ يَا سَيِّدِي أَوْ مَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّهُ
تَجَاوَزَ أَطْرَافَ التَّخْوِمِ السَّاعَةِ ، فَإِنَّ جَوَادَهُ أَفْرَهُ الْجِيَادِ^(٣) وَأَسْرَعَهَا
فَصَمَّتْ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، فَدَنَّتْ مِنْهُ وَقَالَتْ لَهُ بِنَغْمَةٍ حُلُوةٍ سَاحِرَةٍ : مَا هَذَا
الْإِصْفِرَارُ الَّذِي يَكْسُو وَجْهَكَ يَا مِيشِيلُ ؟ وَمَا هَذِهِ الْكَلْبَاءَةُ السُّودَاءُ
الَّتِي تَتَدَجَّى^(٤) فِي عَيْنَيْكَ ؟ فَهَلْ أَنْتَ نَادِمٌ عَلَى مَا كَانَتْ ؟ قَالَ : لَا ،

(١) ثَقَبَ الْبَابَ .

(٢) صَوْتُ مَتَهْدِجٍ : مُنْقَطِعٌ مَرْتَعِشٌ .

(٣) أَكْرَمُ الْجِيَادِ .

(٤) الدَّجَى : الظَّلَامُ . وَتَدَجَّى : يَظْلَمُ .

ولكننى أخشى الفشل^(١) ، قالت : لا أعرف للفشل باباً يُمكنه أن يدخل عليك منه ، فأنت قائدُ الجيش وصاحبُ الأمر والنهى فيه ، فإن كان كلُّ ما يغنيك من الأمر ألا تظهرَ يدُك في هذا العمل فقم الساعة والبس ثيابَ أحد الحُرّاس واذهب إلى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الراية الأولى ، وارقبه حتى تأتى ساعة انصرافه واستبداله فأظهر له كأمك الحارس الذى يخلفه فى مكانه واهتف له بكلمة السرّ التى بشّرتها الليلة بين جنودك - وحُرّاسُ المداولة كثيرون لا يكاد يعرف بعضهم بعضاً - فإذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لا يعلم من أمرك شيئاً حتى إذا رأيت الجيش التركى مُقبلاً فى منتصف الليل ، وعلمت أنه قد أشرف على التّخوم ومَلَكَ رأس الطريق إلى «فيدين» عدت أدراجك إلى القصر متنكراً كما ذهبت لم يشعر بك أحد فى ذهابك أو إيابك ، وكأننا قد فوجئنا بهذه النازلة مفاجأة لا تملك معها الأمر دَفْعاً ولا رَدّاً . فطارَت نفسُ قسطنطين شعاعاً^(٢) عند سماع هذه الكلمات ، وكاد يصرخُ صرخة عظمى يرنجُ بها القصر وأرجاؤه ، لولا أنه طمع فى أن يسمع من أبيه كلمة شرف وإباء تهديمُ صَرْحِ تلك الخيانة الذى تبنيه

(١) يريد من معنى الفشل هنا : الإخفاق والخيبة .

(٢) يقال : طارت نفسه شعاعاً ، أى تفرقت قطعاً ، كأنما تبعثرت خواطره طائرة فلا يكاد يجتمع رأيه فى أمر .

يد زوجته ، فأرهف أذنيه لسمع جوابه ، فسمعه يقول بنغمة الفارح
المغتبط ، بعد كلام كثير لم يفهمه : نعم ، هذا هو الرأى السديد ، ولقد
أمنتُ الآن كلَّ شيء ، فأتيتى بلباس الحارس ، فقد عزمت ولا مردَّ لعزى
فتهاقتُ على عنقه وقبلته قبله طويلة رنَّ صوتُها في أرجاء الغرفة ، ثم
ذهبت لشأنها .

فما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه ، واكفهر وجهه ،
وتداركت ضربات قلبه ، وحاول أن يصيح بخانه صوته ، فسقط
مغشياً عليه ، ولكن بين ذراعى ميلترا ، لأنها كانت واقفة وراءه
ترصده من حيث لا يشعر بمكانها ؛ حتى إذا هوى تلقته بين ذراعيها
وقادته إلى غرفتها .

الجريمة

جَمَّ الليل في بَحْثِهِ ونشر أجنحته السوداء على الكون بأجمعه ،
فَهَجَعَ تحت ظلالها الأحياء جميعاً من بشر وحيوان ، ولم يبقَ ساهراً
وسط هذا السكون المخيم إلا عينا القائد برانكوميير في شِعْب تراجان
يدبرهما هاهنا وهاهنا ، فينظر بهما تارة أمامه وأخرى وراءه ، ليرى
هل يَرصده أحد أو يتأثر حركاته وأعماله ، ويُقلِّبهما أحياناً في صفحة

السما فبرى عيون النجوم مُحْدَقَة فيه فيخيلُ إليه أنها عيون الله ناظرة
إليه نظرات الوعيد والتهديد وكان صائحاً يصيحُ به من جوانب الملا
الأعلى : اصنع ما تشاء أيها الرجل الخائن ، واكتم عملك عن عيون
الناس جميعا ، فإنى ناظرٌ إليك ومسجلٌ عليك هذه الجناية العظمى التى
تجنيتها على وطنك وقومك . فيتضامل ويتصاغرُ ، ويمرُّ بخاطره قولُ
أُمّه له فى عهد طفولته فيما كانت تُنمليه عليه من آداب الحكاء وأقوالهم :
« إن كوكب السماء ونجومها تشهد بين يدى الله على جميع جرائم البشر
التي ليس لها شهود ! » ثم لا يلبثُ أن يُسرّى عن نفسه ويذهب به خياله
إلى الملك وعرشه وتاجه وصوّجانه وعِزّه ونجده ، ثم يلقى نظرة
عامة على الجبال المحيطة به ، والسهول المنبسطة من حوله ، والأنهار
المسماحة بأشعة النجوم ولألائها ، فيقول : غداً تصبح هذه الجزيرة كلها
جزيرتى ، وأهلها خدعى وحشمى ، يأتمرون بأمرى ، ويذعنون لقوتى
وسُلطانى وغداً يتلألا التاج على جبين بازليد ، فتصبحُ أسعدَ نساء
العالم جماء ، وأصبح بسعادتها أسعد رجاله ، ثم يُحيلُ إليه كأنه يرى
بازليد مائلة بين يديه تنظر إليه نظراتها الساحرة الفاتنة ، فيمدُّ ذراعيه
لاستقبالها ويناجيها قائلاً :

إننى لا أزال على العهد الذى عاهدتك عليه منذ فارقتك حتى
الساعة ، لم أندم ولم أتردد ، ولا مرّ بخاطري أن أحفلَ بشيء فى العالم

سوى أن أنيلك البُغْيَةَ التي تَبْتَغِيهَا .
إن القُبْلَةَ التي وضعتها على شفتيَّ منذ ساعة قد أنلجت صدرى وسكنت
جميع مخاوفي ووساوسى ، فأنا أقدم على الجريمة لإقدام الهادى المطمئن ،
لا أشعر بشقلها ، ولا أفكر فى نتائجها بل لا أشعر أنها جريمة يخفق لها قلبى
خفقة الأسف والندم .

لقد أقسمتُ لك على الوفاء بالعهد ، ولا بد لي من أن أبرِّ بقسمى ،
ولو كنتُ لك على حرمان نفسى منك — وأنت الحياة التى لاهياة لي
بدونها — لاستحييتُك أن أحنث فى قسمى أو أن أخيس بهدى^(١) .

أقسمتُ لك أن أخون وطنى وهأنذا أخونه كما أردتِ راضيا مستسلما
لا أندبُهُ ولا أرثى له ؛ فرضاكَ هو الوطنُ كُلُّهُ بل هو الدنيا بأجمعها ،
فليذهب الوطن كله وليفنَّ العالمُ بأمره ، فأنت لي كل شيء فيهما .

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث وهو جالس على رابية مرتفعة فى
شعب « تراجان » تحت القوس الرومانى بجانب هضبة عالية من الخطب
أعدت للإحراق إنذاراً للجيش بالعدو عند زحفه ، وكانت الهضبات
المحيطة بتلك الرابية المبعثرة من حولها سوداء قائمة تتراعى فى ظلمة الليل
ووحشتها فى صور وحوش مخيفة هائلة فاغرة أفواها أو مُقْبِعِيَّة على أذنانها^(٢)

(١) خاس بعهدة يخيس : غدر ونكث .

(٢) مقبعية على أذنانها : جالسة مثل جلوس الكلاب .

أو متوثبة للهجوم ، فلا يقع نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعاً ، فيسرع إلى الاغتماض فلا يفارقه خيالها إلا بعد حين .

وما كان الرجل جباناً ولا رعيدياً ، فهو بطل البلقان وحاميه وسيد من أنجبت به ميادين قتاله وساحات نزاله ... ولكنها الجريمة تنزع قلب المجرم من بين جنبه ، وتغشى على عينيه البصيرتين فيصبح بلا قلب وبلا نظر ، يرى ما لا يرى الناس ، ويخشى ما لا يخشوه ، فهو لا يخاف الوحوش والهوام^(١) والجن والشياطين والصخور والأحجار ، بل يخاف جرائمه وآثامه !

وإنه كذلك إذ تحيل إليه أن إحداها تتحرك من مكانها وتحلحل تحلحل الليث المتوثب^(٢) فاستطير قلبه فرقاً ورعباً ، وحاول أن يتهم نظره ويستريب به ، فلم يستطع لأنه مالبث أن رأى في ذروة تلك الهضبة رأساً يتحرك وينظر إليه يعينين متقدتين ، فصرخ صرخة الكلب الجبان الذي ينبج الشبح المقبل نحوه ، لا جرأة وإقداماً ، بل جبناً وفرقاً ، وقال : من هناك ؟ فانحدر الشبح إليه من أعلى الهضبة وقال له بصوت خشن أجش : لا ترتع يا أبت^(٣) فأنا ولدك قسطنطين ،

(١) الهوام : دواب الأرض كالحيات ونحوها .

(٢) تحلحل : تحرك للانتقال من موضعه .

(٣) ارتاع يرتاع : خاف . لا ترتع : لا تخف .

فَوَثَّبَ من مكانه وثْبَةً المملُوع ، وقال له بصوت متهدِّجٍ مَحْتَنِقٍ : ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ ومن أنباك أنى فى هذا المكان ؟ قال له : وأنت ما الذى جاء بك إلى هنا يا أبت وماذا تُريدُ أن تفعل ؟ إننى أسألك عن مثل ما تسألنى عنه ! فأسقط فى يده ^(١) وطار طائرٌ عقله ، وأحسَّ بالخطر المقبل ، إلا أنه تجلَّد واستمسك وقال بلهجة الآمر المسيطر : وما سؤالك عن مثل هذا أيها الفتى الجرىء ؟ وما شأنك بى وبما أفعل ؟ وكيف فارقت حصنك فى هذه الساعة من الليل ؟ ومن أذنك بذلك ؟ ^(٢) قال : لم أستاذن فى ذلك أحداً غير واجبى ، إننى أعلم كل شيء يا أبت ، وأعلم أنك ما جئت إلى هذا المكان إلا لترتكب أفظع جريمة يرتكبها إنسان فى العالم ! فصاح برانكومير وهو يتميزُ غيظاً وحنقاً ^(٣) : كذبت أيها الغلام الوقح واجترأت على مالم يجترئ عليه أحدٌ من قبلك ! عد الآن إلى حصنك ، ولا تبقَ بعد صدور أمرى إليك لحظة واحدة ، فإن حاولتى فى ذلك فأنت أعلم بما يكون ؛ إنك لا تفهم شيئاً من أسرارى وخَوَاصِ نَفْسِ ^(٤)

(١) أسقط فى يده : تخير فلم يدر ماذا يفعل .

(٢) الفصيح : ومن أذن لك فى ذلك .

(٣) يتميز غيظاً : يتقطع من الغيظ .

(٤) الخوِصة : تصغير الخاصة ، بمعنى خصائصه الدقيقة .

وليس لك أن تسألني عنها لأنك جندى والجندى لا يسأل قائده ، بل يأتمر بأمره ولو كان الموت الزؤام ، عد إلى مخفرك وتول حراسته بنفسك ، ولا تأذن لجفئك بالغمض لحظة واحدة ، وسأحدثك غداً في هذا الشأن حديثاً طويلاً تعلم منه كل شيء .

فتضعف قسطنطين أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة ، وجثا على ركبتيه بين يديه ^(١) وقال له : عفواً يا أبت ، فقد أخطأت في سوء ظني بك ، فأنت أشرف من أن تضع نفسك حيث أرادوا أن يضعوك ، وما أحسب كلمتك التي قلتها للأميرة منذ حين في تلك الخلوة الرهيبة ، إلا كلمة مزح ودعابة أردت بها مداراتها وملايبتها ، أو الهزء والسخرية بها ، حتى إذا فصلت عنك وخلا بك مكانك تحوت بظهر يدك عن فك تلك القبلية الأثيمة التي ختمت بها ذلك العهد الأثيم ، ثم قلت لها في نفسك : إنني قد عاهدت الله أينها المرأة البلهاء قبل أن أعاهدك على أن أكون أميناً لوطني وفيأله ، فلا أحفل بعهد غير هذا العهد ولا يمين غير تلك اليمين ، ثم خفت أن تكون قد استرابت بك ^(٢) أو مرت بخاطرها خالجة شك في أمرك فأخذت للأمر حيطتها من طريق غير طريقك ، فجئت بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها ،

(١) جثا يجثو : جلس بين يدي من هو أعلى منه جلسة التضرع والاسترحام .

(٢) داخلتها الريبة .

حتى إذا شعرت بسواد الجيش التركي مُقبلاً أشعلت النيران إنذاراً لجيشك
بالخطر الداهم وخيبت آمال أعدائك فيما يكيدون لك ولقومك .

أليس كذلك يا أبت ؟ نعم إنه كذلك بلاشك ولا ريب فأشعل النار
الآن ودعها تسطع في هذا الفضاء الواسع ، وتبدد بلائها هذه الظلمات
المتكاثفة ، فإن أشعُرُ بسواد مقبل من بعيد يتقدم شيئاً فشيئاً ، وما أحسبه
إلا فيالق العدو وجيوشه أنظر يا أبت واخترق بنظرك هذا الفضاء الشاسع
ألا ترى تحت خط الأفق أشباحاً تتحرك وتتقدم ؟ إنه ليخيلُ إلي أنها
أعلام الجيوش التركية تخفق في أجوائها ، وربما لا تمضي ساعة أو بعض
ساعة حتى تكون قد وصلت إلى هنا !

أسرع بإشعال النار ، أو عد أنت إلى قصرك وخذ لنفسك راحتها فيه
ودعني أتولى عنك إشعالها ، فالخطرُ مُوشك أن يقع ، مامن ذلك بدا
مالى أراك جامداً يا أبت ؟ وما هذا الذهول الذي يتولاك ؟ أشعل النار
أو تنح عن طريق لأشعلها ، أشعلها فالوقت أضيقُ من التأمل والتفكير !
فرفع برانكوميرُ رأسه ونظر إلى ولده نظرة جامدة وقال له : إذن
أنت تهمنى يا قسطنطين وترتابُ بي ؛ ما أشقانى وأسوأ حظى ، ولدى
وفلذة كبدى ووارثُ اسمى ولقبى تهمنى ويتجسس على ويقف وراء
الآبواب ينظرُ من خصائصها^(١) ليسمع ما يدور بينى وبين زوجى

(١) ثقبها .

في خلوتي ! فيا للعار ويا للشقاء ! أيها الولد العاق المسكين ! اذهب لشأنك
فإني أريد أن أبقى هنا الليلة وحدي ، ولا تجازف بمخالفة أمر قائدٍ تعود
أن يأمر فيطاع ، وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة على مخالفة
أمره ، إنني سأبقى هنا وحدي وسأشعل النار بنفسى عند ما أريد إشعالها ،
فلا حاجة بي إلى مشورتك ومعاونتك ؛ عد أدراجك إلى حصنك
ولا أضف إلى جريمة التجسس على أهلك جريمة معاندته ومخالفة أمره ،
اعلم أنك الآن جندى أمام قائده ، لا ولد بين يدي أبيه .

فأن قسطنطين وتأوه آهة طويلة وقال : وارحمتاهُ لي ولك يا أبت !
إن الأمر صحيح لا ريب فيه ، والجريمة على وشك الوقوع ^(١) .

ثم صمت صمتاً طويلاً لا تطرف له فيه عين ، ولا تنبعث له جارحة
ثم انتفض فجأة وصاح بلهجة شديدة صارمة : أبى ، إننى سأبقى هنا !
فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ما أراى الآن إلا أمام عدو
لدود لا ولد بازٍ مطيع ! قال : لا يا أبت ، بل أمام ولد بازٍ مطيع ولولاك
ما جشمت نفسى مشقة المجيء إليك فى هذه الساعة من الليل ،
ولا وقفت أمامك هذا الموقف الخطر المميت ؛ إننى لم أفعل ذلك من
أجل نفسى ، بل من أجلك ومن أجل شرفك ، إننى أحبك كما أحب وطنى
وما على وجه الأرض شئ أحب إلى منكما ، وكما أتمنى له أن يعيش

(١) الانصح أن يقال : والجريمة توشك أن تقع .

حرًا مستقلا ، أتمنى لك أن تعيش شريفاً عظيماً ، فإذا ضاع وطنى وكان ضياعه على يدك أنت فقدتُ فى ساعة واحدة جميع ما أحب فى هذه الحياة ، فارحم ولدك المسكين الذى لا يزال يُضمَر لك فى قلبه حتى الساعة ذلك الحب القديم الذى تعرفه ، واستبقِ له تلك السعادة التى لم يبق له فى الحياة سعادة غيرها : تنح قليلاً عن طريقى وأذن لى أن أصل إلى هذه الراية لأشعل نارها فيراها حُرَّاسُ الروابي جميعاً فيُشعلوا نيرانهم فينهض الجيش للدفاع عن الوطن ؛ فقد أُرِفَت الساعة ولم يبق سبيلٌ للأناة والتفكير .

ثم اندفع إلى مكان الراية مسرعاً ؛ فاعترضه أبوه ووقف فى وجهه وقفة الصخرة العاتية فى وجه الريح العاصف ، وقال له : لا آذنُ لك بالتقدم خطوة واحدة . ودون ما تريد الموت الزؤام !

فطاش عقلُ قسطنطين وجُنَّ جنونه وقال له : احذر يا أبت ! فإن فى هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً ينتقم من الظالمين ، ويُجازى الخائنين بخيانتهم شرَّ الجزاء ، وما أنت بناجٍ من عقابه ، ولا مُفْلِت من جزائه لقد حدثتني نفسى فى تلك الساعة الهائلة التى سمعتك فيها تؤامرُ على وطنك وأمتك ، بأفطع ما تحدث به نفسٌ صاحبها ، وكنت على وشك أن أرفع أَمرك إلى الملك أنت وزوجك ، وأكشف له دخيلة أمريكا ، فلم أفعل ، لأنى صُننتُ بك على الموت الدنى الذى

بموت الخائفون المجرمون أمثالك ، وأشفقتُ على ذلك الشرف العظيم
الذي بلغ في علوه مناط السماء الأعلى أن يُصبحَ مهاناً مُذالاً " تدوسه
الأقدام وتطؤه النعال ، وكرهتُ أن يمرَّ السابلة من رعاك الناس
وغوغائهم على قبرك بعد موتك فيبصقوا عليه كأنما يبصقون على قبر
الشیطان ، وربما نبشوا عن جثثك ، تشفياً منك وانتقاماً ، فأخرجوها
من قبرها ، وأسلبوها إلى جوارح الطير وكواسر الوحش تمزق
أشلاءها وتبعثر عظامها .

أشفقتُ عليك من كل هذا ، وأشفقتُ على نفسي أن يراني الناس
في طريق فيشيروا إليَّ بأصابعهم ويقولوا : هذا هو الولد السافل الذي
الذي وشى بآبيه وأوردته مَوْرِدَ التهلكة ، فبئس الولدُ ولبئس الوالد .
ولا يلدُ الخونة المجرمون غير الأدنياء الساقطين ! فنهت نفسي وملكت
عليها زمامها وقلبي يذوب حزناً ولوعة ، وقلت : لعلي أستطيع أن أُنقذ
الأمر من طريق غير تلك الطريق ، وأن أتمكن في آن واحد من إنقاذ
أبي وإنقاذ وطني من حيث لا أخسرُ واحداً منهما في سبيل الآخر ، فجئتُ
وقلبي متملئ أملًا ورجاء .

أما الآن وقد يشتت من كل شيء فإني أكاد أشعرُ بالندم على ضياع
تلك الفرصة التي ملكتها ساعة من الزمان فسرختها ولم أنتفع بها ،

وكان صوتاً خفياً يهتف بي من أعماق قلبي : إنك قد أشفقت على نفسك مرة وعلى أبيك أخرى ولم يخطر ببالك لحظة واحدة أن تُشفق على وطنك وقومك .

فأسألك مرة أخرى ياسيدى ، وربما كانت هى المرة الأخيرة ، أن تتنحى عن طريقى ، فإننى قد عزمْتُ عزماً لا مَرَدَّ له أن أقتحم هذه الراية لِأُضرم ناراها رَضِيت أم أبِيت ، سقطت السماء على الأرض أم بقيت فى مكانها !

فأطرق برانكوميرُ لحظةً ذهبت به فيها الهموم والأفكار كلَّ مذهبٍ ثم رفع رأسه فإذا دُمعةٌ كبيرة تترقرقُ فى عينيه ، ونظر إلى ولده نظرة عتبٍ وتأنيبٍ ، وقال له : نعم يابنى ! إنك قد أخطأت خطأ عظيماً إذ أضعتَ الفرصة العظيمة التى لاحت لك ، وقد كان جديراً بك أن تفرصها ولا تُسرَّحها وأن تُلقى فى عنق أبيك فى تلك الساعة التى رابك فيها من أمره مارابك ، غلاً ثقيلاً تقودُه به إلى حضرة الملك متهماً إياه بجرمة الخيانة الكبرى لِأمر بقتله فتمتع نظرك برويته مصلوباً على باب المدينة والجماهيرُ من حوله يبصقون على وجهه ويصفعون قذاله^(١) ويرجمونه بالحجارة على مرأى من ضباطه وجنوده وأسرته وأصدقائه ، وربما اشترك هؤلاء جميعاً معهم فى عملهم .

نعم إنها فرصةٌ ثمينةٌ جداً قد أضعفناها بترددك وتحيرك ، وقد كان
جديراً بك أن تُقدم إقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان في
مكانك ، فقد عودتُ نفسي أنني إذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ولا
أتريتُ ، وقد عزمتهُ الآن على ألا أُشعلَ هذه النار فلا أُشعلها ولا آذنُ
لك بإشعالها ، بل لا آذنُ لك بالنحرُك من مكانك خطوةً واحدة !

فوقف قسطنطينُ حائراً ملتاعاً يترجمُ بين اللَهْفِ على وطنه الضائع
والإشفاق على أبيه المسكين ، لا يستطيعُ أن يخونَ وطنه الذي نبتَ في
تربته وعاش بين أرضه وسماؤه ولا أن يَعُقَّ أباه الذي أبرزه إلى الوجود
ووهبه نعمة الحياة التي ينعُم بها ، فأسند رأسه إلى صخرة كانت بجانبه
خائراً متضعضاً تتواردُ في رأسه الخواطر والأفكار يُصارعُ بعضها
بعضاً وبشتد بعضها في أثر بعض ، حتى بلغ منه الإعياء مبلغه فنظر إلى أبيه
نظرة منكسرة حائرة تفيضُ حزناً وياساً ، وقال :

أُرضيك يا ميثيل برانكومير ، يابطلَ البلقان وحاميا وأشرفَ من
أنجبت به أصلابُ رجالها وأرحامُ نساها ، أن يملكَ العدوُّ علينا هذه البلادَ
العزيزة الكريمة فيقتلَ أبناءها ، ويستحل حُرُماتها ويُنكسَ صُلباًها ،
ويهدِمَ صوامعها ومعابدها ويُخرَسَ فيها كلَّ صوت غير صوت الأذان
على ذرى المنائر قال : نعم يرضيني ذلك لأنني أحسنتُ إليها فكفرتُ
بنعمتي وجازتني شرَّ الجزاء على صنيعي ! قال : إن لم تفعل ذلك من

أجلها فافعله من أجل ربك ، قال . أى رب تريد ؟ إننى لا أفعل شيئاً من أجله ، فهو مُماليٌّ مُداج لا يُحِبُّ إلا قساوسته وكهانه ، ولا يرى رءوساً تصلح للتيجان غير رءوسهم الصغيرة الصلعاء ، ولكننى سأنتزع بالرغم منه ذلك التاج من ذلك الرأس الذى توجّه به وأضعه على رأسى ، قال : ولكنك تعلم يا أبت أن التاج الذى يفتاؤه مُتناوله من يد عدوه ليس بتاج شريف . قال : ولكنه تاج على كلِّ حال ! قال : ألا تخاف أن يُثقل يوماً على رأسك فيهبط إلى عنقك ويستحيل إلى طوق حديدى يخنقك ويقضى عليك ؟ قال : إنك تهينى يا قسطنطين وتهدّنى ؛ ولقد بلغت بوقاحتك الغاية التى لا غاية ورامها . فتجمل قليلاً ولا تنس أنك إنما تخاطب أباك ! قال : عفواً يا أبت وغفراً ، فلقد بلغ بى اليأس مُبْلَغَه حتى أصبحت لا أفتقه ما أقول !

ثم دنا منه وأمسك يده وأنشأ يُخاطبه بصوت ضعيف متهافت ويقول :
عُدْ إلى نفسك لحظةً واحدة يا أبت ، وراجع فهرس تاريخك الشريف واذكر تلك الأيام المجيدة التى أبلّيت فيها فى الدفاع عن وطنك وقومك بلا سِجْلٍ لك التاريخ فى صفحاته البيضاء بأقلامه الذهبية وتلك الوقائع الحربية الهائلة التى كنت تستقبل فيها الموت استقبال العروس ابتسامات عروسه الحسناء ليلة زفافها ، وتضحك للهول فيها ضحك الزهر لقطرات الندى ، والنبت لأشعة الشمس ، ثم تعود منها منصوراً مظفرّاً يستقبلك

نساء القرى وفتياتها في كل طريق مررت به بدفوفهن وعيدينهن يغنينك
ويرقصن بين يديك ؛ ويرشفن قطرات الدماء من كؤوس جراحاتك
وينثرن الأزهار تحت قدميك ، ويُنادينك باسم المخلص العظيم ، وخليفة
المسيح في الأرض .

اذكر تلك الأعلام الوطنية التي تخفقُ على أبواب المدينة وأسوارها ،
وترتحها طرباً وسروراً عند رؤيتك ؛ وترامىها على قدميك كلما مررت بها
كانها تحاول تقبيلهما ولشمهما ، وآخس إن مررت بها بعد اليوم أن تُشيعَ
بوجهها عنك احتقارا وازدراء ، وتضم أطرافها إلى نفسها ترفماً وإباء حتى
لا تلمس جسمك ولا تخفق فوق رأسك .

لا تبع أمتك يا أبت بعرض تافه من أعراض الحياة ، فالتاج الذي
يتناوله صاحبه من يد عدوه ليس بتاج الملك ؛ إنما هو قلنسوة الإعدام .
كيف يهنؤك ذلك الملكُ وأنت ترى أمتك المسكينة راسقة في قيود
الذل والاستعباد تبكي وتستصرخ ولا مُنجِد لها ولا مُعين ، وتئن في
يد عدوها القاهر أنين المحتضر المشرف ولا من يسمع أنينها ، أو يُصغي
إلى شكاتها .

كيف يهنؤك ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنك أسارى أذلاء في
قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوقَ الجزار ماشيته إلى الذبح .
فإن خفق قلبك خفقة الرحمة بهم أو العطف عليهم لا تستطيع أن تمده

يدك لمعوتهم وإنقاذهم ، لأنك قد بعثتهم ونفصت يدك منهم فلا سبيل لك إليهم بعد ذلك .

اذكر يا أبت تلك الأيام التي لقي فيها هذا الشعب المسكين على يد هؤلاء القوم الظالمين ما لم يلق شعب في الأرض على يد فاتح أو مغنصب ، أيام كنا غرباء في أوطاننا ، أذلاء في ديارنا ، نمشي فيها مشية الخائف المذعور ، وننتفض انتفاضة الهارب المتسكر لا نعلم أيسقط الشقاء علينا من السماء ، أم ينبعث إلينا من أعماق الأرض ؟ وهل يخرج الخارج منا من منزله ليعود إليه أو ليرد المورد الذي لا رجعة له منه أبد الدهر ؟

اذكر أيام كانوا يملكون علينا كل شأن من شؤون حياتنا حتى زروعنا وضروعنا^(١) ومياه أنهارنا ، وأشعة شمسنا ، فأصبحنا ولا شأن لنا في وطننا إلا كما يكون لعمال المزرعة ونواطيرها^(٢) من الشأن فيها ويحصون علينا كل حركة من حركاتنا وكل سكة من سكناتنا ، حتى نبضات قلوبنا وخواطر أفكارنا ، وفلتات ألسنتنا ، وأحاديث آمالنا ، ويحاسبوننا على النظرة واللفتة ، والآنة والزفرة والقومة والقعدة ثم يقضون فينا بما شاءوا من أقضيتهم فلا ينحسر ظلام ليلة من

(١) الضروع : جمع ضرع ؛ ويقصد به الماشية الحلوب .

(٢) النواطير : جمع ناطور ، وهو عيدان من قصب أو من خشب تصنع على هيئة الإنسان وتكسى من ثيابه ثم تنصب في الحقل أو في الكرم لتدود عنه الطير .

الليالى إلا عن مصلوبٍ تهفو به الرياحُ السافيات ، أو طريحٍ مُرتَهَنٍ فى
أعماق السجون !

اذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمة يعاقبُ عليها قائلها بحرمانه من
ذلك الذى يهتف باسمه ^(١) ، وكلمة الدين إثما عظيما يذهبُ بصاحبه إلى أحد
القبرين ، إما المنشورِ وإما المحفور ^(٢) .

اذكر الذموع التى كانت تُذَرِّفُها الأمهاتُ على أطفالهن المذبوحين
فوق حُجُورهن ، والصَّيِّحاتُ التى كانت تصيحها الزوجاتُ والأخوات
الواقفاتُ بأبواب السجون على أزواجهن وإخوتهن ، والزفراتِ التى
كان يُصَعِّدُها اليتامى الثاكرون على حافات القبور حينئذٍ إلى آباءهم
وأمهاتهم الهالكين !

اذكر ذلك كله ولا تُنْسِه ، لا بل أنت تذكره وتعرفه كما تعرفُ
نفسك ، لأنك أنت الذى قصصته علينا ومثَّلته لآعيننا وقلوبنا ، وأريتنا
من ويلاته ومصائبه مالم نره ، ولطالما كنت تبكى عند ذكره بكاء
الطفلِ الثاكل أمه ، فنبكى لبكائك وننشِجُ لنشيجك ^(٣) .

ألا تسمعُ هذه الأصوات الخيفة التى تحملها إلينا الرياحُ من ذلك

(١) يعنى النقي .

(٢) يعنى الصلب على أعواد من خشب ، أو الدفن فى التراب !

(٣) النشيج : غصة الحلق بالبكاء .

الجانِبِ الغربى ؟ إنما أصواتُ الموتى من جنودك وأبطالك يَصْجُونَ في قبورهم صائحين : واويلته ، هاهى السماء تُوشِكُ أن تنقضَّ على الأرض ! وهاهى أقدامُ العدو تدنو من تخوم البلقان وبطاحه ، وتوشِكُ أن تطأَ بِنعالها قبورنا ، وتُزْجِجَنَّا من مراقدنا ، وهاهو قائدنا المحبوب برانكوميرُ العظيمُ الذى سفكنا دماءنا وبذلنا أرواحنا في سبيل ظَفَره وانتصاره ، يُساومُ عدونا في وطننا ، ويُحاولُ أن يبيعه نساءنا وأولادنا الذين تركناهم أمانةً في يده ؛ ففي سبيل الله ماسفكنا وفي ذمة القدر ما بذلنا !

ألا تسمع هذه الهمهمة الهابطة علينا من آفاق السماء ؟ إنما أصواتُ الملائكة الأبرار يَصْبِحُونَ وَيَصْخَبُونَ وهم وقوف بين يدي ربهم يقولون له : حتى متى يَسْعُ حِلْمُكَ وَأَنَاثُكَ هذا الخائن الغادر الذى يبيع أمة من أُمم المسيح إلى أعدائها وأعداء دينها ، ويُسَلِّمُ إليهم أرواحها وأعراضها ، فاقض اللهم فيه قضائك العادل ، واضربه الضربة التى تجعله عبرةً للخائنين ، ومثلاً فى الغادرين .

إلى أيتها الذكريات القديمة والانتصارات العظيمة والأيامُ الغُرُ المحجَّلة^(١) المكتوبة بمداد الذهب فى صفحات التاريخ ، مُدِّى إلى يد

(١) الفرس الاغر : الذى فى وجهه بياض . والمحجل : الذى فى قوائمه بياض ، ويقال : يوم أغر محجل : يعنى يوم أبيض ، من أيام المفاخر ، ومن أيام النصر والسعادة .

مساعدتك . وأعينني على ذلك الرجل البائس المسكين ، وتمثلي أمام عيني
لتذكيره بنفسه وتاريخك عله يحمر خجلاً عند رؤيتك ، ويقشعر بدنه
رهبةً من خيال الجريمة التي يريد ارتكابها .

إلى أيها الفضائل الإنسانية والكمالات العالية . من شرف وعِزة ،
وترفع وإباء ، وأمانة وإخلاص ، تعالين إلى جميعاً واجتئين معي بين يديه
واضرغن إليه أن ينصفك ، ويعديل في أمركن ، ولا يقضى للرديلة
عليكن . وقلن له إنك إن خدلتنا ، ونقضت يدك منا ، فلن نجد لنا
من بعدك ناصرأ ولا مُعيناً .

يا أطفال البلقان وصغارها الناشئين من فتية وفتيات أقبِلوا إليه جميعاً
اجتمعوا من حوله وتعاقوا بأهداب ثوبه ، واسكبوا ما تستطيعون أن
تسكبوا من دموعكم وشئونكم^(١) تحت قدميه ، وقولوا له : رحمة بنا أيها
الاب الرحيم والسيد الكريم وحناناً علينا ، لا تكلنا إلى أعدائنا وأعداء
وطننا ، ولا تجعل مستقبلنا ومستقبل بلادنا في أيديهم يسومونا الخسف
ويذيقونا ألوان العذاب فإن أيت إلا أن تفعل فجرّد سيفك من غمده
واقطع به أعناقنا ، فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المرير .

كان يسكلمُ ودموعه تهمرُ على خديه دابةً مائهذاً ولا ترقأ^(٢) وأبوه
يضطربُ بين يديه اضطراب الدوحة^(٣) المائلة في مهاب الرياح الأربع ،

(١) الشئون : مجارى الدمع في العين . (٢) ولا تجف .

(٣) الدوحة : الشجرة العظيمة .

ويزفرُ زفرات مُحركة ملتببة ، وقد قامت في نفسه تلك المعركة الهائلة التي
تقوم في كل نفسٍ شريفة بين الواجب والشهوة ، يتمثل له الأولُ في
وجه قسطنطين العبوس المكتئب ، فيرتعدُ ويضطرب ، وتترأى له
الثانيةُ في وجه بازيليد الضاحك المشرق ، فيخورُ ويتضعضع ، لا يستطيعُ
أن يُعرض عن نداء وطنه ، لأنه نداء يَصِلُ إلى أعماق قلبه ويبلغ صميمه ،
ولا أن يُفلت من سلطان شهوته ؛ لأنه سلطانٌ قاهر جبّار لا يُفلت
منه قوى ولا ضعيف ، فوضع إحدى يديه على عينيه ، ومد الأخرى
أمامه كأنما يُطارِد أشباحاً خفيفة هائلة تتقدم نحوه وظل يصيحُ بأعلى
صوته : أصمتُ يا قسطنطين ! أصمت يا ولدي ، لا أستطيعُ أن احتملَ
أكثر مما احتملتُ ، آه من القدر وأحكامه ، والدمر وتصرفاته ، وويلي
من الشقاء المكتوب ، والبلاء الحتم ، مَنْ لى بيدٍ قوية تنفذني من هذا
الشقاء المحيط بي فقد أصبحتُ وما على وجه الأرض أحد أجدرُ بالرحمة
والشفقة مِنى ، العنُونى جميعاً يا أولادى وأبناء وطنى ، وانتقموا مِنى بأفزع
أنواع الانتقام ؛ فإتى خائنٌ لئيم لا أستحق رحمتكم ولا مغفرتكم ثم
صمتَ صمتاً عميقاً لا ينبس فيه ولا يتحرك ، وظل على ذلك هنيهة ثم
نظر أمامه نظرة الدهشة والذهول ، فخيل إليه أنه يرى شيئاً يتقدم نحوه
فقد يده إليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليد ! ألا تستطيعين أن تُجَلِّينى

من ذلك القسم الذى أقسمته لك ، فقد ضَعُفَ كاهلى عن احتمالِه واحتمال
أنفاله ، لا أريد مُلْكا ولا تاجا ولا صَوْلْجانا ، بل لا أريد أن أبقي على
ظهر الأرض يوما واحدا ؛ الموت ا مَن لى به فى هذه الساعة فأنجُو من
همومى وآلامى .

فتهلل وجهه قسطنطين غبطة وسرورا ، ووقعَ فى نفسه أن الرجل قد
تلوّم واستخذى وبدأ يَسْتَفْظَعُ ذَنْبَهُ وَيَسْتَهْوِلُهُ ، فترامى على عنقه واحتضنَه
إليه وظل يقولُ بنغمَةِ الفارحِ المغتبطِ : أحمَدُكَ اللهم قد أنقذتَ لى أبى !
فحنا أبوه عليه وظلا متعانقين ساعة لا يُسمعُ فيها إلا ترددُ أنفاسهما
ونشيج بكائهما ثم افترقا بغتة واشراَبَا بأعناقهما^(١) حينما سمعا فى لحظة
واحدة حسيسَ^(٢) جيش العدو وهو مُقبلٌ من ناحية الشمال ، وكان
ما سمعاه فى هذه المرة حقيقة لاولهما فارتجلا فى وقت واحد حركتين
مختلفتين ، إذ وثبَ قسطنطينُ إلى الراية وثبة عظمى ليُضرمَ نارها ،
ووثب أبوه وثبة أعظمَ منها فاعترض سبيله وصرخ فى وجهه : قف
مكانك ، لا تتقدمُ خطوة واحدة ! فأصاب قسطنطينُ مثلُ الجنون وقال له :
تنحَّ عن طريقِ أيها المجرم الأثيمُ فقد قرغ صبرى ، قال : إنك لا تستطيع
أن تَمُرَ إلا على جُثتى . فارتعد قسطنطينُ وبرقت عيناه وذهبت به الأفكارُ

(١) اشراَب (على وزن اطمأن) رفع رأسه لينظر .

(٢) الحسيس : صوت خفى .

مذاهبها وقال له : أي كلمة هائلة نطقت بها أيها الرجل الشقي ، وأي قضاء قضيت به على نفسك ! تنح عن طريق فإن نفسي تُحدّثني بأفزع ما تُحدّث به نفس صاحبها في هذا العالم ، قال : إنك لا تستطيع أن تقتل أباك ، قال : أستطيع أن أفعل كل شيء في سبيل وطني ، إنني وقفت سيفي طول حياتي على خدمتك وحمايتك والذود عنك أيام كنت لوطنك وقومك أما الآن فإني أغمد ذلك السيف نفسه في صدرك طيب النفس مثلوج الفؤاد لأنني أعتقد أنني لا أغمده في صدر أبي بل في صدر خائن وطني ، قال : لاتنس أن لي يداً أقوى من يدك وسيفاً أمضى من سيفك قال : إنني لأجهل ذلك ولكنك تُقاتل في سبيل الدناءة والخيانة ، وأقاتل في سبيل الواجب والشرف ، والله مُطلعٌ علينا من علياء سمائه ، وهو الحكيم العدل يبتنا فجزد برانسكوميرو سيفه وهجم على ولده هجمة قوية ، فجزد الآخر سيفه وتلقى ضرباته بأشد وأنكى منها ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى حكم القاضي العادل حكمه فسقط الظالم ونجا المظلوم !

فنظر قسطنطين إلى جثة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة جامدة صامتة لا يعلم ما وراءها ثم أغمد سيفه وصاح بأعلى صوته : رَحِمْتَكَ اللَّهُمَّ فَإِنِّي لَا أَستطيع أن أفعلَ غيرَ ما فعلت ، ثم هجم على الراية فأشعل نارها فضادت بها أرض البلقان وسماؤها .

وفي اليوم الثاني نشر الملك ميلوش على الآلة هذا البلاغ :

« حاول العدو ليلة أمس تثبيت جيوشنا وأخذها على غرة^(١) » وكاد
يظفر بذلك لولا أن انتهت الفرقة الأولى من الجيش ونهضت للدفاع
بقيادة ضابطها العظيم قسطنطين برانكوميير فأبُلَّتْ في المعركة بلاء عظيم
ووقفت العدو في مكانه ساعة كاملة ، حتى نهضت بقية الفرق لمساعدتها ،
فدارت معركة هائلة بين الجيشين انتهت بانتصارنا وانهزام العدو إلى
مواقعه الأولى ولكن المصاب العظيم الذي عم الجيش وشمل الأمة بأسرها
هو موت قائدنا العظيم « ميشيل برانكوميير » فقد وُجد في أثناء المعركة
قتيلا بضربة سيف في خاصرته^(٢) بين صخور تراجان تحت القوس الروماني ،
وسيُحْتَفَل بتشييع جنازته غداً احتفالاً عسكرياً جليلاً يليق بمقام شهيد
الوطن وبطله العظيم ! » .

أما الذي خَلَفَهُ في قيادة الجيش فهو ولده الضابط الشجاع مُنْقِذُ الأمة
والوطن « قسطنطين برانكوميير » .

الضمير

مضى الليل إلا قليلاً وقسطنطينُ ساهرٌ في فراشه لا يغمض له جفن ،
ولا يطمئن له جنب ، لأن مَضْرَعَ أبيه في شعب تراجان لا يزال ماثلاً أمام
عيذه ما يفارقه لحظة واحدة وكان كأنه يرى الجثة بين يديه تتلوى وتتمرمر

(١) التثبيت : المفاجأة ليلاً . والغرة (بكسر الغين) الغفلة : (٢) جنبه .

وتنظرُ إليه نظرات حادة ملتبهه ، وكأنَّ جُرْحَهَا الدامى بين أضلاعها لا يزال يتدفقُ منه الدم فتار من مكانه هائجاً مذعوراً وحاول أن يطرُدَ هذا الخيال عن نظره فلم يستطع فقد يدَه إلى ذلك الجرح الموهوم المسائل أمامه يُريدُ أن يعترضَ سبيلَ الدم المتدفقِ منه فغلبه على أمره وازداد في تدفقه وانبثاقه حتى ملأ أرضَ الغرفةَ جميعها ، وصَبَغَ بلونه الأحمر القاني جميع ما فيها من فرش وأثاث وآنية وثياب ، فاشتدَّ فزعُه وارتباعُه ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل ، فوقع مَغشياً عليه .

وظل على ذلك ساعة حتى انفشأت حرارةُ دمه ^(١) ، فاستفاق من غشيته وجلس إلى نفسه يناجيها ويقول :

إننى على ثقة من نفسى ، لم أفعل إلا ما يجبُ على كلِّ رجل شريف أن يفعله ، فما هذا الخوفُ الذى يُساورنى ! وما هذه الصُّورُ المخيفةُ التى تترامى لى فى يقظتى وأحلامى ؟ كان يجبُ علىَّ أن أضربَ - لأنه مامِنٌ ذلك بُدْ - ففعلت ، فلم أرتابُ فى عملى ، ولم أرتعدُ ارتعادَ المجرمين الآثمين ؟ إن الرجل لا يخاف إلا ذنبه ، وأنا لم أذنب إلى أحد ؛ لأن الرجل الذى قتلته كان يُريدُ أن يقتل أمة بأسرها فأفقدتها بقتله ، بل أفقدتُ عشرين أمة من أُمم المسيح فى أوروبا ، ألا يجوزُ للإنسان أن يقتل الأفعى دفعاً لأذاها ، والوحشَ كسراً لشرِّته ^(٢) واللصَّ انقاءً لضرره ؟

(١) انفشأت : هدأت (٢) حدته ونشاطه .

إني لم أفعل غير ذلك فإلى أرى وجه السماء أحمر قاتنا ليله ونهاره ، ومالى
أجد مذاق الدم فى كل كأس أشربها من ماء أو خمر ؛ ومالى لا أستطيع
النظر إلى يدى خوفا ورُعبا ، إني لم أقتل أبى ، ولكننى أحييته لأنه إن
كان يحيا اليوم فى قلوب الناس حياة العظمة والمجد ، وكان تمثاله إلهًا معبودا
يُطيفُ به الشعب^(١) ويُقبل أركانه ويتبرك بلسه واستلامه ، وكان اسمه
طغراء الأسماء الشريفة المسجلة فى التاريخ - فإنما ذلك بفضل الضربة التى
ضربتُه إياها ، ولولا ذلك لعاش بقية أيام حياته عيش الأذنياء الساقطين ،
أو مات موت الخونة المجرمين .

وهنا انتفض واصفرّ وارفض جبينه عرقا^(٢) . وقال بصوت ضعيف
محتق . نعم ! إن ذلك كله صحيح لا ريب فيه ، ولكنى قتلت أبى !
ثم لم يلبث أن عادت إليه مخاوفه ووساوسه ، فرأى الجنة والمصرع ،
والطعنة النجلاء ، والدم المتدفق ، وسمع تلك الأصوات التى تهتفُ به فى
كل مكان : يا قاتل أبيه ! يا أكبر المجرمين ! يا عار البشرية وشنارها^(٣) ،
فجئ جنونه ، وثار ثأره ، وعادت له سيرته الأولى .

(١) أطاف يطيف : أحاط ؛ أما طاف (بغير الهمزة) فمعناها : دار .

(٢) ارفض : تفرق ، ويقال : ارفض جبينه عرقا ، يعنى تنثر العرق على جبينه .

(٣) الشنار : أقبح العيب .

ولم يزل هكذا ليله كله : يهدأ حيناً ويشورُ أحياناً ، حتى نشر الفجر
رايته البيضاء في آفاق السماء ، فاستروحَ رائحة الأفس وشعر يبرد الراحة
فأوى إلى مضجعه .

كذلك كان شأن قسطنطين دائماً ، وكذلك كانت أكثرُ لياليه منذ
حدث ذلك الحادث العظيم .

الازهار

دخلت ميلترا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالي الطويلة
الليلاء ويدها باقة من الزهر تريد أن تقدمها إليه ، فرأته مضطجعا على
كرسيه مستغرقا في نومه ، وآثارُ الدمع ظاهرة بين أهداب عينيه وفي
صفحتي خده فرئت لحاله وجلست تحت قدميه رقبُ يَقْظَنَهُ رُفْيَ
المجوسى طلعة الشمس من مشرقها ، فحمل النسيمُ إلى رأسه نفحات تلك
الازهار ، فانتعش وتحرك في مكانه وفتح عينيه فرأها فابتسم وتهلل وقال :
ميلترا ! قالت : نعم يا سيدى ، نَعِمْتَ صباحاً ونعمتُ جميعُ أيامك
بُكُورُها وأصاغلها ^(١) ، ثم مدت يدها إليه بالباقة وقالت له : قد اقتطفْتُ لك
صباح اليوم هذه الازهار الجميلة التي تحبها أكثرَ من سواها ، لتَسْرُوحَها
فَتُروِّحَ عن نفسك بِرَّيَّاهَا ^(٢) همومها وأحزانها فتناول الباقة منها

(١) البكور : جمع بكرة ؛ وهى أول النهار . والأصائل : جمع أصيل ، وهو
آخر النهار . (٢) الريا (بفتح الراء وتشديد الياء) : العطر .

واستنشقها وتنفّس تنفّسةً طويلةً ، ثم نظر إليها نظرة حلوة عذبة ،
وقال لها :

أتعلمين ياميلترا أنى استنشقتُ في هذه الأزهار التى تهديها إلى أنفاسك
الأريجة العطرة وأن الذى ينعشنى ويحيينى ويرفئ عنى همومى وآلامى
فى هذه الباقية إنما هو أريجك لا أريجُ الأزهار ، فارتعدت ميلترا لأول
كلمة حُب سمعتها من فم ، وظلّ قلبها يخفق خفقاناً شديداً ، ومَلَكَ
الدَّهْش عليها عقابها ولسانها فلم تستطع أن تنطق بحرف واحد ، وظلت
شاخصةً إليه يبصرها ، فاستمرّ فى حديثه يقول : لقد كنتُ أطلبُ الموت
قبل دُخولك وأتمناه تمنياً شديداً حتى رأيتك ورأيتُ هذا الجمال المتلألئ
فى عينيك وشممتُ أنفاسك العطرة المنبعثة من أوراق أزهارك ؛ فأحببتُ
الحياة من أجلك ، وأصبحتُ أتمنى أن أعيش لأراك وأقضى بقيةَ أيام
حياتى بجانبك ، فشكراً لك يا صديقتى ، فأنت النّجمة الوحيدة الباقية
فى سماء حياتى بعد ما غرّبتْ جميعُ نجومها وكواكبها ، والشّعاعُ المضى
الذى ينبعثُ إلى أعماق سجنى المظلم الخالك فيبددُ ظلمتَه ويُنيرُ جوانبها
ويملأ قلبى أملاً ورجاءً ، والواحةُ المُخصّبةُ الخضراء التى ألجأ إليها كلما
قطعتُ مرحلةً فى صحراء هذه الحياة المحرقة فأنامُ تحت نجيلها وأبردُ
يردٍ مياهها . قالت : ليقى أستطيعُ أن أكون عند ظنك بى ياسيدى ،
بل ليقى أستطيعُ أن أقاسمك هذه الهمومَ والأحزان التى تعالجها

أو أختملها عنك جميعها حتى لا أراك بين يديّ إلا باسمًا متطلقًا في جميع
آنائك وساعاتك ، إنني أمتك الوضيعة المسكينه ياسيدي ، وليس لفتاة
مثلي أن تسألك عن سبب همومك وأحزانك ، ولكنني أستطيع أن أضرع
إليك أن تُسرّ بها عن نفسك وتهونها عليك ، فأنت رجل فاضل شريف ،
وقد قلت لي قبل اليوم : إن الرجل الفاضل الشريف يعيش من شرفه
وفضيلته في سعادة لا يهنأ بمثلها الملوك في قصورهم . قال : ومن أين لك
أنتي رجل فاضل شريف ؟ قالت : لو لم تكن كذلك لما أحبيتك ! فابقسم
قليلا وقال إذن أنت تحبيني ياميلتزا ! قالت : نعم ياسيدي ، أكثر من
كل شيء في العالم ، ولولا كرامته أمتك عليك وجلال ذكرها في قلبك لقلتُ
لك إنها ما كانت تحبك في حياتها أكثر مما أحبك اليوم ! فأطرق قسطنطينُ
لتلك الذكرى المؤلمة ، ومرت بحبيبه سحابة سوداء قائمة ، فرفع رأسه وقال
لها : حسبك ياميلتزا ، لا تُذكريني بأمر ، فما أحسبها الآن إلا ناقة عليّ في
قبرها ، تلعنني وتستعدي ربّها عليّ " وتساءل الله صباحها ومساءها أن
يعاقبني وينتصف لها مني ؛ واخجلته من نفسي يوم ألقاها في تلك الدار
ويجمع الموقف العظيمُ بيني وبينها ! فارتاعت ميلتزا عند سماع هذه الكلمة
وذهبت بها الظنونُ كلّ مذهب ، وظلت تنظر إليه نظراً غريباً حارّاً . وقد
بدأت تفهم ذلك السرّ الهائل الذي أعياها أمره زمناً طويلاً وتذكر السبب

فى حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد الذى يُقيمه ويُقعده ويُساور نفسه
ويُقلقها منذ قُتل أبوه حتى اليوم ، وكأنه قد ألمّ بما دار فى نفسها " وتردّد
فى خاطرها فظل ناظراً إليها باهتف وشوق ينتظرُ أوّل كلمة تنطق بها بعد
هذا الصمت الطويل انتظارَ المتهم أوّل كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه
حتى رآها تبسمُ وتهلّل وتقول له : هونْ عليك الامرَ ياسيدى ، ولا ترتبْ
فى نفسك ولا فى ضميرك فما أنت بمجرم ولا قاتل ، ولكنك رجل شريف
ولولا أنك كذلك لما أحببتك ، فدّ يده إليها فتناول يدها وقال لها :
أتعدينى ياميلتزا أن تكتمنى فى صدرك كلَّ شئ ؟ قالت : نعم أعدك وعداً
لا أخيسُ به . قال : وشئ آخرَ ياميلتزا . قالت وما هو ياسيدى ؟ فأدناها
منه وضّمها ضِمّةً خفيفةً إلى نفسه ، وقال لها : أنقسمين لى على الحب حتى
الموت ؟ قالت : نعم ياسيدى أقسم لك . قال بَمَ تُقسمين ؟ قالت : بكل
ما تسكنُ به نفسك ، قال : ضعى يَدك على هذا الخنجرِ وأقسمى به . قالت :
أفعلُ على شرط واحد . قال : وما هو ؟ قالت : أن تُهدينى إياه بعد ذلك .
قال : وماذا تصنعين به ؟ قالت : أقتلُ به نفسى يوم يحلُّ بك مكروه !
فناولها إياه وهو يقول فى نفسه : ربّما حلّ بى عما قريب ذلك المكروه
الذى تتوقعين ! فوضعتُ يدها على الخنجر وأقسمت به أن تُحافظ على حبه
والإخلاص له حتى الموت : فتهلّل قسطنطينُ فرحاً وسروراً . ونزعه من

خاصية وعلقه في منطقتها ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها في ثغرها
قبلة كانت عزاءها الوحيد عن كل ما مر بها في حياتها .

هريث

جرح الجندى «أورش» في إحدى المعارك فلزم بيته وتولت ابنته
«أنا» معالجته وكان يزوره بعض أصدقائه من الجنود في الفينة بعد الفينة^(١)
فزاره في أحد الأيام الجندى «لازار» وكان لا يزال حارسا لقصر القائد
«برانكو مير» والخادم الأمين لأرملته بازيليد وثقتها المؤمن على جميع
أسرارها ودخائلها ، فقال له «أورش» حين رآه : هل من جديد اليوم
بالأزار ؟ قال : نعم قد فشل جيشنا في الواقعة الأخيرة كما فشل في الواقعة
الماضية والوقائع التي تقدمتها ، ولا أعلم متى تنتهى هذه الانكسارات ،
فقد تمت عدتها حتى أمس عسرا ، ولا أعلم ما يأتى به الغد ؛ أما القتلى
والجرحى فهم كثيرون لا يحصى لهم عدد ، وما يتك بالبيت الوحيد
الذى تترقق فيه الدماء والدموع ، ففي كل بيت من بيوت المدينة
شاكون ومتألمون .

فقال أورش : لاريب أن قسطنطين غير أبيه ، ولقد فقدنا بفقد ذلك
الرجل العظيم قائدا كان خير القواد وأبرعهم وأوسعهم علما وتجربة
وأغلبهم بموارد الأمور ومصادرهما ، لم يُفك النصر من يده في جميع

(١) الحين بعد الحين .

لهذا في رواية أخرى (١)

معاركه أكثر من مرة أو اثنتين ، حتى مات في الواقعة الأخيرة وسيفه
مُصلت في يده مية البطل الشريف ، فمات بموته الظفر والانتصار ، وأدار
الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا الله متى يُقبل بعد إداره .

فقال له ابنه «أنا» وكانت جالسة تحت قدميه تَضُمُّ له جراحه :
لقد قلت لي يا أبت قبل اليوم : إن قسطنطين قائدٌ عظيم لا يُشَقُّ له غبار ،
فا هذا الرأى الذى تراه فيه الآن ؟ قال : نعم ، كان قائدا عظيما في حياة أبيه
وتحت لوائه . وأما اليوم وقد استقل بالرأى وحده وانقطع عنه ذلك الوحي
الذى كان يُرشده ويهديه ، فقد انتقض عليه أمره ، وأصبح حائرا مضطربا
لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يُصَرِّفُ وقائمه ومواقفه ؟ فقالت : إن
جيشنا لم ينكسر قط في واقعة من تلك الوقائع التى تذكرونها كما تتوهمون
لأنه لم يتخلَّ عن مركزه ولم يُسلم شِعْبًا واحدا من تلك الشُعاب التى
يحرصها ، أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم فى جيوش أعدائنا أكثر منهم
فى جيوشنا أضعافا مضاعفة ، وحسبنا ذلك فوزاً وانتصاراً .

فقال لازار : لقد كانت خُطة القائد ميشيل خُطة دفاع محض لا يحولُ
عنها ولا يتحزح ، والجبال بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطين
فقد أخذ نفسه بالهجوم على العدو فى حصونه ومواقفه ، وترك الجبال
التي تحميه من ورائه ، فكثرت القتلى والجرحى فى جيشنا ، وهى خطة
مخاطرة ومغامرة لا يركبها إلا القائد اليأس أو المجنون ، ولا أعلم

أى الرجلين هو ؟

قال أورش : أحسبه يائساً قانطاً ، فإننى أشعر كما يشعر كثير من الناس أن سَخْنَتَهُ قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً عظيماً ، وأصبح حزينا منقبضا لا تفارق الكتابة عينيه وجبينه ، ولم أر فى حياته ثاكلاً حَزَنَ على فقیده حُزَنَ هذا المسكين على أبيه . قال لازار : ولقد حدثني بعضُ خدم القصر وحُرَّاسِهِ أنه يستيقظ من نومه فى بعض لياليه صارخاً متفزعاً يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها ، أو يخاف شبحاً هائلاً مقبلاً عليه .

فقالت «أنا» : إنكم تظلمون قائدنا ظالماً عظيماً ، فقسطنطين أفضل القواد وأشرفهم ، وما هو بجان ولا بجنون ، فنظر إليها لازارُ شَرّاً وقال : بل هو جانٍ أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة ، فقد رابى منه مُذْ وَلِىَ قيادةَ الجيش عَفْوَهُ عن الأسرى الذين يُقدمون إليه ، وإنزاله إياهم منزلة الإكرام والإعزاز واهتمامه بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون لا أعداء محاربون ؛ كما رابى منه أكثر من ذلك اعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعاً ، حتى عن زوج أبيه التى تحبه حُبَّ الآم ولدها وفلذة كبدها . فإنه مذ هجر قصرها وعاش فى بيته الجديد الذى يسكنه اليوم لم يزرها مرة واحدة ولا دعاها إلى زيارته حتى الساعة .

فقالت «أنا» : أكلُ أفعال قسطنطين قد أصبحت مُريية عندكم لا تُحْمَل

على تحمل حسن ، حتى إكرامه للأسرى المساكين وإشفاقه على ذلهم وضعفهم ؟ قال : ليس هذا رأي وحدي ، بل رأى أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم إلى الموت الزؤام عمدا لسرّ خفي يُضمّره في نفسه ، وما أحسبهم قادرين على احتمال هذه الحالة زمنا طويلا ، فاحتدّمت « أنا ، غيظاً وقالت : إن قسطنطين أشرفُ مما تظنون ، وهل ترون مُحالاً أو غريباً أن يحزنَ المرء على أبيه بعد فقده ؟ ثم التفتت إلى أبيها وقالت له بسداجة ورقة : أقسم لك يا أبت لو أن مكروها أصابك من هذا الجرح الذي في فخّذك - لا أذن الله بذلك ولا قدره - لحزنتُ عليك حزناً يصغرُ بجانبه حزنُ قسطنطين على أبيه ! فابتسم أبوها وضمها إلى صدره وقال لها : إننا لا نذهبُ في أمره يا بُنيّة حيث ظننت ، ولا تهّمه بخيانة ولا مالا ، ولكننا نخافُ عليه أن يكون قد نفذَ اليأسُ إلى قلبه فضعضه ، وأن تكون نفسه قد حدثته بمسألة أعدائه ومؤاتاتهم ، فأعدت لذلك العدة التي رآها ، واليأسُ هو الخديعة الكبرى التي يدّسها الشيطانُ دائماً في نفوس الأمم الضعيفة التي يريدُ قتلها والقضاء عليها .

وهنا دخل بعض الجنود لقيادة أورش ، وتلام آخرون من بعدهم ، واشتركوا جميعاً في الحديث ، وأنشأ لازار ينفثُ سموم سعيّته ووشايته في صدورهم حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين يحزن أتمته ويمالي أعداءها عليها ، وأن الرأي الصواب أن يرفعوا أمره إلى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويُعهدَ بها إلى غيره ثم انصرفوا .

المرسلة

بينما كان قسطنطين جالسا صبيحة يوم في غرفته ، إذ دخل عليه حارسُ
بابه يستأذنه لبازيليدَ أرملةِ أبيه ، فانتقبض صدره واشتأزت نفسه ، لأنه لم
يكن رآها ولا أذن لها بمقابلته منذ مات أبوه حتى اليوم ، فأذن لها بعد
لأى^(١) فدخلت عليه وحيتته وجلست بجانبه ، وأنشأت تعاتبه في انقباضه
عنها ووخشته منها وسوء رأيه فيها ، وتُقسم له بحرمة ذلك الدفين الكريم
الذي كان يُحبه ويُحبها أنها لا تُضممر له في نفسها مَوْجدة ولا حقدًا ، ولا
تحمِلُ له بين جنبيها غير الحب الخالص والودَّ المتين ؛ ثم قالت له : إني برغم
آلامي وأحزاني التي أعالجها منذ نزلتُ بي تلك النازلة العظمى حتى اليوم ،
لم أربدَّا من أن آتي إليك في هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك
عليها وأهونَ عليك أمرها ، وربما وجدتُ السبيل إلى خلاصك منها ،
فالتفت إليها مُندهشا^(٢) وقال : أي ساعة تريدان ؟ وما هي الشدة التي أنا
فيها ؟ قالت : كأنك لا تعلم أن الخطر الذي يُحيط بك عظيم جدًّا ، لا قبل
لك باحتماله وأن جنودك قد أصبحوا ينقمون عليك نقمة عظمى

(١) بعد بطة وشدة .

(٢) الفصيح : دهشا ، أو مدهوشا .

وَيُغْضُونَكَ بَغْضًا لَاحِدًا لَهُ ، وَلَا تَحْدِثْهُمْ نَفُوسَهُمْ بِشَيْءٍ سِوَى تَلَمُّسِ
الطَّرِيقِ إِلَى الْوَصُولِ إِلَيْكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاصْفَرَّ وَجْهُهُ وَقَالَ : وَمَاذَا يَنْقُمُونَ
مَنِي ؟ قَالَتْ : يَنْقُمُونَ مِنْكَ مَخَاطِرَكَ بِهِمْ فِي تِلْكَ الْمَعَارِكِ الْهَائِلَةِ الَّتِي تَسْكَدُ
تَفْنِيهِمْ وَتَقْضِي عَلَيْهِمْ ، وَفَشَلَّكَ فِي جَمِيعِ الْوَقَائِعِ الَّتِي قَتَبَهَا مَذُولِيَتْ
قِيَادَةِ الْجَيْشِ حَتَّى الْيَوْمِ ، وَقَدْ اِمْتَدَّ بِهِمُ الْحَقْدُ عَلَيْكَ إِلَى سُوءِ الظَّنِّ بِكَ ،
فَأَصْبَحُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّكَ خَائِنٌ مَالِيٌّ لِلْعَدُوِّ ، وَأَنَّكَ مَاسَلَكْتَ هَذِهِ الْخُطَّةَ
الْمَعْوِجَةَ فِي حُرُوبِكَ إِلَّا لَتَمَكِّنَ الْأَعْدَاءُ مِنْ اجْتِيَازِ الْحُدُودِ وَاقْتِحَامِ الْبِلَادِ
فَانْتَفُضَ انْتِفَاضَةً شَدِيدَةً ، وَارْبَدَّ وَجْهُهُ ، وَنَزَتْ فِي رَأْسِهِ سَوْرَةُ الْغَضَبِ (١)
وَقَالَ : مَنْ الَّذِي يَتَهَمُنِي بِالْخِيَانَةِ ، قَالَتْ : جُنُودُكَ وَرَجَالُكَ ، قَالَ إِنَّهُمْ
كَاذِبُونَ فِيمَا يَقُولُونَ مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ إِنْ كُنْتَ صَادِقَةً فِيمَا تَقُولِينَ ، قَالَتْ :
مَا كَذَبْتُ عَلَيْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ وَلَا غَشَشْتُكَ فِي النَّصِيحَةِ ، وَلَقَدْ زَادَهُمْ حَقْدًا
عَلَيْكَ وَمَوْجِدَةً أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ اجْتَاَزَ الْجِبَالَ لِبَلَّةِ أَمَسَ ، وَرَبَّمَا لَا يَمُرُّ يَوْمَانِ
أَوْ ثَلَاثَةٌ حَتَّى يَكُونَ قَدْ وَصَلَ إِلَى أَبْوَابِ الْعَاصِمَةِ ، وَسَيَصِلُ بِرَيْدِكَ السَّاعَةَ
فَيَنْقُلُ إِلَيْكَ هَذَا الْخَبَرَ الْمَحْزُونَ الْأَلِيمَ . فَصَرَخَ صَرْخَةً عَظُمَى دَوَّتْ بِهَا أَرْجَاءُ
الْغُرْفَةِ ، وَوَثَبَ مِنْ مَكَانِهِ ثَائِرًا وَهُوَ يَقُولُ آه يَا وَطَنِي الْعَزِيزَ ! وَابْتَدَرَ
الْبَابَ يَرِيدُ الْخُرُوجَ مِنْهُ : فَأَمْسَكَتْ بِيَدِهِ وَاجْتَذَبَتْهُ إِلَيْهَا وَقَالَتْ : مَهْلًا ،
أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ : أَدْعُو جُنُودِي وَأَجْمَعُ مِنْ تَفَرَّقَ مِنْهُمْ فِي الشُّكُنَاتِ وَالْقُلَاعِ

(١) تحرك في نفسه الغضب الشديد .

أذهب بهم إلى الحدود للدفاع عن القلعة الكبرى ؛ فالوطن في خطر عظيم
قالت : لا تفعل ، فقد خرج الأمر من يدك ، واعلم أن جميع جنودك
المقيمين في ثكنات المدينة وأرباضها ^(١) قد أصبحوا متمردين عليك
لا يطيعونك ولا يأتمرون بأمرك ! فلم يخف بسلامها وأسرع إلى النافذة
وأشرف منها على الساحة العامة وظل يصيح : أيها الجنود ! النفير النفير !
الآهبة الآهبة ! ^(٢) فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه حتى هاجوا
واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجة : ليسقط الخائن !
ليسقط المجرم ! فظل يشير إليهم بيده يحاول إسكاتهم واسترعاء أسماعهم
وهم مستمرون في ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يفترون ، فعاد إلى
مكانه يائساً متضعضاً ليس وراء مابه من الهم غاية .

فدنت بازليد منه وقالت : قد علمت الآن أنني لم أكذبك القول
ولم أخدعك ، وأنني لم أقدم إليك مقدّمى هذا في هذه الساعة العصيبة إلا
لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ الوطن وأبنائه ؛ فرفع نظره إليها مندهشاً وقال :
أنت ؟ قالت : نعم أنا ، في الوقت الذي لا أجد فيه بجانبك من يأخذ
بيدك أو يعينك على أمرك فأضغ لما أقول : إن الملك سيزور قصرك
الساعة ليستجد بك على دفع هذا الخطر الدائم ، وإن شئت فقل ليستعين بك

(١) الأرباض : الضواحي .

(٢) انفروا انفروا : تأهبوا تأهبوا .

على الاحتفاظ بتاجه الذى يضمن به صَمنه بحياته ولا يحفل بشيء سواه ،
وقد علم الجندُ ساعةَ حضوره فهُم ينظرونه فى هذه الساحة ، حتى إذا
طلع عليهم فى موكبه هُرِعوا إليه (١) ضاجين صارخين يتقدمهم جرحاهم
وزمّانهم (٢) ورَمَوْك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التى يردّدونها الآن
ويصيحون بها فى كل مكان ، فإما أن يُصدقهم فقد هلكَ هلاكاً لا نجاة
لك من بعده ، أو يرتابَ بهم فلا يرى له بدءاً من أن يسلك سبيل الحكمة
فى مداراتهم ومدافعتهم ، فيأمر بعزلك عن القيادة والعهد بها إلى غيرك
إرضاء لهم ، وتسكيناً لثأرهم ، فإن فعل فقد انتشرت لك فى الآلة قالة سوء
لا تستطيع أن تمحو عارها عنك أبداً الدهر .

فظل يرتعد ويضطرب ويردد بينه وبين نفسه : ربّ ماذا أصنع ،
فالخطبُ أعظم مما أحتمل ! فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفيه
وحنت عليه حقّ الأم على رضيعها ، وقالت له بتلك النغمة العذبة
الجميلة التى قتلت بها أباه من قبل : نعم يا بنى إنّ الخطبَ أعظم مما
تحتمل ، ولم يبق بين يديك إلا أن تسلك تلك الطريقَ التى شرع أبوك
فى سلوكها قبل موته ثم عجز عن الاستمرار فيها إلى نهايتها فحسرها
وخسّر حياته على أثرها . فنظر إليها مندهشاً وقال : ماذا تريدان ؟

(١) هرعوا (بالبناء للمجهول) أسرعوا .

(٢) الزمنى (بجرحي) جمع زمن (ككتف) : وهو المصاب بعلة مزمنة .

فصمتت لحظة ، ثم استنجدت قوتها وشجاعتها وقالت له : أتدرى
يا قسطنطين لِمَ ذهب أبوك إلى شعب تراجان وجلس تحت القوس
الروماني في الليلة التي مات فيها ؟ فرجعت إلى ذهنه تلك الذكرى المؤلمة
وقد بدأ يفهم ما ترمى إليه في حديثها ، فراعته الأمر وهاله ، إلا أنه
تماسك وتجلّد وظل ناظراً إليها نظرات جامدة ساكنة أشبه بنظرات
الموتى في التزعج الأخير ، فاستمرت في حديثها تقول : إنه ذهب إلى
ذلك المكان ليستقبل الجيش التركيّ عند قدومه ويأذن له باجتياز الحدود
والوصول إلى فيدين ، ولو فعل لنجى الوطن من خطر عظيم ، ولأطفا
نار هذه الحرب التي تلتهم البلاد التهاما يكاد يقضى عليها ، ولكن اليوم
ملكاً جالساً على عرش البلقان لا تمثالا أجوف منتصباً في الميدان ، ولكنه
عجز في الساعة الأخيرة عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته ، فما رأى سواد
الجيش التركيّ مُقبلاً نحوه حتى نسي عهوده ومواريقه ، وأبتدر الزاوية
الأولى^(١) فأشعل نارها وأيقظ الجيش من رقدته واستناره للأهبة والدفاع
وما كفاه ذلك حتى جرد سيفه للقتال ، وخاض المعركة بنفسه ؛ وظل
يقاتل حتى هلك .

فعجب قسطنطين لتلك الجرأة الغريبة التي لا يشتمل على مثلها صدر
امرأة في العالم ولا رجل ؛ ثم قال لها بهدوء وسكون لا يعلم إلا الله

(١) (بأمرها من قبلها) (١)

(١) ابتدرها : سبق إليها .

مَا يَكُونُ وَرَاءَهُمَا : وَبَعْدُ ؛ فَإِذَا تَرِيدِينَ ؟ فَأَطْمَعُهَا فِيهِ سَكُونُهُ وَهَدْوُهُ ،
وَحَيْلَ إِلَيْهَا أَنَّهُ قَدْ اسْتَخَذَنِي لِلْأَمْرِ وَاسْتَسْلَمَ ، فَقَالَتْ : إِنَّ الْعَهْدَ
السُّلْطَانِي لَأَيْكَ بِمَلِكِ الْبَلْقَانِ لَا يَزَالُ بَاقِيًا بِيَدِي حَتَّى السَّاعَةِ ، وَهُوَ
مَذِيلٌ بِتَوْقِيعِ السُّلْطَانِ وَخَتْمِ آلِ « بَرَانَكُومِير » ، فَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ
إِلَى تَغْيِيرِ حَرْفٍ مِنْهُ أَوْ كِتَابَةِ عَهْدٍ جَدِيدٍ ، وَقَدْ قَابَلْتُ رَسُولَ الْقَائِدِ
الْتُرْكِيِّ لَيْلَةَ أَمْسٍ ؛ وَاتَّفَقْتُ مَعَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَكُنْ أَعْقَلَ مِنْ أَيْكَ
وَأَبْعَدَ مِنْهُ نَظَرًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ التُّرْكَ لَا يَدُ مُقْتَحِمُو هَذِهِ الْبِلَادِ وَآخِذُوهَا ،
أَبْطَأُوا أَمْ أَسْرَعُوا ، فَقَدْ اجْتَازُوا عَقِبَةَ الْجِبَالِ الْيَوْمَ ، وَسَيَجْتَازُونَ
بَقِيَّةَ الْعُقَبَاتِ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ؛ مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٍّ ؛ فَخَيْرٌ لَكَ أَنْ تُهَادِثَهُمْ
وَتُسَالِمَهُمْ وَتَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا تَنْفَعُكَ لَدَيْهِمْ غَدًا ، وَأَنْ تَفْتَحَ لَهُمْ بِيَدِكَ
مَا اسْتَعْلَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ الْبِلَادِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَغْلِبُوكَ عَلَيْهَا ، لِتَحْتَفِظَ
لِنَفْسِكَ بِذَلِكَ الْعَرْشَ الَّذِي هُوَ عَرْشُكَ وَعَرْشُ أَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ لَوْلَا
طَمَعُ ذَلِكَ الْمُخْتَلِسِ وَفُضُولُهُ !

إِنَّ الْجُنُودَ يَضْجُونَ وَيَصْخَبُونَ وَيُوشِكُ الْمَلِكُ أَنْ يَخْضُرَ فِيرْفَعُوا
إِلَيْهِ أَمْرَكَ وَيَهْتَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ بِسُقُوطِكَ وَخِيَانَتِكَ ، فَيَأْمُرُ بِالْقَبْضِ عَلَيْكَ
وَيَجْنُوكَ ، فَاغْضَبْ لِنَفْسِكَ وَافْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ عَلَيْكَ لِتَسْتَطِيعَ أَنْ تَأْمُرَ
أَنْتَ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ وَبِجَنِّهِ بَعْدَ بَضْعِ سَاعَاتٍ ، وَيَدِينُ لَكَ الْبَلْقَانُ مِنْ
الْبُسْفُورِ إِلَى الْأَدْرِيَاتِيكِ .

أما أنا فإني لا أطلبُ جزاءَ عندك عن نصحي لك وإخلاصي إليك ،
سوى أن تمنحني لديك منزلة الأم الحنون ، وتأذن لي أن أجلس على أذني
درجةٍ من درجات عرشك أخدمُك وأمدُك برأيي ومشورتي ، وأستظلُّ
بظلال مجدك وشرفك حتى الموت . ثم أخرجتُ من حقيبتها العهدَ السلطانيَّ
وأرتهُ إياه ، فأخذ يقرؤه وهو في يدها حتى أتمه ، فقالت له : قم
الساعة وسافر إلى الحدود وقد جيشك بنفسك وتقهقر به كأنك تفعل
ذلك مضطرا ، وأنقذ نفسك ووطنك من هذا الخطر العظيم .

هاهي طُبولُ الملك تقرب شيئا فشيئا ، واعلم أن قلم القدرة معلقُ
الآن بين أصبعي الله ليكتب به في صفحات الغيب أحد الحكمين : إما لك
بالصعود إلى العرش ، أو عليك بالهبوط إلى أعماق السجون ؛ فأحسن
الاختيار لنفسك ولا تكن عدوها لاحق المأفون .

فرفع رأسه ونظر إليها نظرة نارية ملتهبة ، لو رسمتها ريشة المصور
الماهر لأحرقت القرطاس الذي رُسمت فيه ، وقال لها بهدوء وسكون :
قد قلت لي ياسيدتي منذ هُنية إن أبي قد ذهب إلى شعب تراجان ووقف
تحت القوس الروماني ليستقبل الجيش التركي عند قدومه ، ويأذن له
بالمرور ، يخانه عزمه ونسي ميثاقه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخظنة
في سوء ظنك به ، فإنه لم يزل متمسكا برأيه في تلك الليلة محافظاً على عهده ،
حتى حالت الحوائلُ بينه وبين الوفاء .

قالت : وما الذى طرأ عليه ؟ قال : طرأ عليه الموت ، فحال بينه وبين ما يريد ! قالت : وهل تعلم كيف مات ؟ قال : نعم أنا أعلمُ الناس بذلك ، لأنه لم يكن حاضراً معه فى تلك الساعة وفى ذلك الموقف سوى ، فارتعدت ونظرت إليه مندهشة وقالت له : ألم يمت قتيلاً بيد أعدائه ؟ قال : لا ، بل بيد أصدق أصدقائه ! بل بيد أقرب الأقرباء إليه وأمسهم به رحماً^(١) فطاش عقلها وجن جنونها وصاحت : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أريد أن أقول : لئن أنا الذى قتلته يدي جزاء له على خيانتة لوطنه ! قالت أنت يا ولده وفلذة كبده ؟ قال : نعم ، وأنت التى وضعت فى يمينى ذلك السيف الذى قتلته به ، لأنك أفسدت نفسه وقتلت شعوره ، وأغرقت به بغيانة وطنه ، وسلبته جوهرة الشرف الثمينة التى كانت تضىء ما بين جنبيه ، وكانت أكرم الجواهر وأغلاها فلم أر بدا من أن أقتله لاستنقاذ الوطن من يده ، فتألمى ماشئت أينها المرأة الشريرة وتعذبتى ، وتجزعتى كؤوس الحسرة والنسدم على ما أفلت من يدك من أمانيك وآمالك . وحسبى انتقاماً منك على جريمتك التى أجرمتها إلى وإلى أبى وإلى الطبيعة أن تعلمى أننى أنا الذى خيبت آمالك وهدمت يدي ذلك الصرح العظيم الذى أنفقت فى تشييده أيام حياتك ! نعم أنا الذى قتلته يدي واقترفت أعظم جريمة يقترفها إنسان فى العالم ، ولولاك لما أقدمت على ذلك ولا خطر ببالى أن إنساناً فى الوجود يقدم

(١) أمسهم به رحماً . الصقهم قرابة .

عليه ، ولو كان في استطاعتي أن أكشف أمرَكَ وأهْيِكَ السُّر عن جريمتك
 لفعلت ولكنني لا أستطيعُ أن أفعلَ إشفافاً على سمعة ذلك الرجل المسكين
 الذي قَضَى عليه سوء حظه أن يكون شريكاً لك في حياتك وفي جرائمك ،
 فعيشي معذبةً مثلي فريسةً لآلامك وأحزانك ، واستنفدي ماء شؤونك^(١)
 حُزناً على العرش الذي فاتك والزَّوج الذي رحل عنك ، وأسهرى لياليك
 الطوالَ خائفةً مُرتعبةً من شبح الجريمة التي اجترمتها ، وخيال الدماء التي
 سفكتها ، وليطرد قلبك خوفاً وهلعاً كلما ذكرت أنك قد وضعت في يد
 الولد سيفاً ليقتل به الوالد ؛ فمات الوالد قتيلاً ، وعاش الولد معذباً ولتطل
 حياتك على ظهر الأرض لتطول آلامك وأحزانك ، حتى إذا نزل بك
 الموت نزل بهيكل يابس من العظم ، قد أحرقتهُ اللُّوعات ، وأضوته
 الحسرات^(٢) ، وافترسته الهموم والأحزان .

و هنا سمعت ضجة عظيمة في الساحة ، وهاتفون يهتفون : الملك ! الملك !
 فاكتأب قسطنطين وتقبَّضَ وجهه ، وتهللت بازليدُ وتطلَّقت وطوتُ
 وثيقة العهد برفق ووضعتها في جيبها ، ثم قالت له : نعم ، إنني سأعيش
 يا قسطنطين حزيناً باكية كما قلت ، ما من ذلك بُد ، ولكنني لا آذن لك أن
 تعيش يوماً واحداً بعد اليوم على ظهر الأرض حتى لاترى بعينيك
 مصائب وآلامى ، وتَشْمَتَ بهمومى وأحزاني ، فقد دسستُ لك الدسياسة

(١) ماء جفونك .

(٢) الضاوى : الهزيل الضعيف ويقال أضواء المرض : هزله وأضعفه .

في الجيش حتى ثار عليك ووضع في عنقك ذلك الغلّ الثقيل ، غلّ الخيانة
الذي لا خلاص لك منه ، وسترى الآن بقية ثأري وانتقامي !

وهنا دخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم لازار وهو يصيح وهم
يصيحون من خلفه : إنه خائن يامولاي ، وقد مالا الأعداء علينا ، إنه أفتى
رجالنا ، ورمل نساءنا وبسّم أطفالنا ؛ فأعدنا عليه ^(١) وانتقم لنا منه
للوطن ! والملك يقول : دعوني وشأني ، لا أصدق شيئاً مما تقولون ، ثم
التفت إلى قسطنطين وقال له : أيها البطل العظيم ؛ إن الوطن في خطر
وقد جئت أستنجد بك على دفع هذه النازلة التي نزلت بنا ، وسأكون
في المعركة المقبلة جندياً من جنودك ، أقاتل بجانبك ، وأبارك خطواتك
ولا تبتأس بما يقول هؤلاء القوم ، فإنهم لا يعلمون من أمرك شيئاً ؛
إننا لانعرف اليوم تحت سماء البلقان بطلاً غيرك ، وما كنا نعرف قبل
اليوم بطلاً غير أليك ، ولا نضمر لكما في قلوبنا غير الإجلال والإعظام
لمكانكما من خدمة الوطن وحمايته والدود عنه ، أما الحظ الذي فارقك
في تلك الوقائع الماضية فأبشرك أن عهد فراقه لا يطول ، وأنه سيعود
إليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلق الجميل ، وستمحو بانتصاراتك
المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة ، ثم التفت إلى الجنود وقال لهم :
يا أبطال البلقان وحماة ، لا تحذلوا قائدكم ، ولا تحفروا ذمته ^(٢) فهو

(١) أعدنا عليه . انصرنا ، أعدى يعدى ، كأتى .

(٢) لا تخونوا عهده .

سيدكم اليوم ، وابن سيدكم بالأمس ، واعلموا اننى لا أنصغى إلى تهمة
لا أعرف لها برهاناً ولا دليلاً .

فصمت القوم صمتاً عميقاً ، وساد بينهم السكوتُ هنيئاً ، وقد بدأت
مَراجِلُ غيظهم ومَوَجدَتهم تَفُتُّ وتَقاصر ، وهنا انفرج الجمع وإذا
بيازيليد تتقدم رويدا رويداً كما ينساب من مَكَمَنه الارقم^(١) نحو موقف
الملك حتى مَشَلَّتْ بين يديه ، وقالت له بصوت عال سمعه جميع الجنود :
أنا التى أتهمه يامولاي ، وأنا التى أقدمُ لك على تهمة الدليل والبرهان !
فدهش الملكُ عند رؤيتها ، وقال : الأميرة ؟ قالت : نعم يامولاي ،
أرملةُ القائد ميشيل برانكومير ، إننى أتهم هذا الرجل بخيانة قومه
ومخالاة أعدائهم عليهم ، وأقول لك : إنه كتب بينه وبينهم عهداً على
أن يفتح لهم أبواب البلاد فى الساعة التى يريدونها ، فيمنحوه فى مقابل
ذلك عرشَ البلقان وتاجه وقد دعانى الساعة ليُشركنى معه فى هذه الجريمة
التي يريد اقترافها ، ويسألنى أن أساعده عليها ؛ فلم أربداً من أن أرفع أمره
إليك ؛ أما البرهان الذى تُريده فهـا هو ذا ، ومدت يدها إليه بتلك الوثيقة
فتناولها الملك ذاهلاً وأخذ يقرؤها وهو يرتعد ويرتجف ويقول فى نفسه :
ماذا أرى ؟ إخلاء الحدود ! اجتيازُ الجبال ! العرش ! التاج ! ختم برانكومير
ياللهو ! ويا للفضاعة ! ثم نظر إلى قسطنطين فإذا هو تمثالٌ جامد لا يتحرك

(١) الارقم : أخبث أنواع الافاعي .

ولا يطرف^(١) ، فتقدم نحوه خطوة وقال : ما هي كلمتك يا قسطنطين ؟
 فصمت ولم يقل شيئاً فالتفت إليه بازليد^(٢) وقالت له : تستطيع أن تنكر
 شيئاً مما أقول ؟ فأوثقته وثاقاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، إلا أنه
 رفع رأسه ونظر إليها نظرة غريبة مهمة لم يعلم غيرها ماذا يريد بها ، ثم عاد
 إلى صمته وإطراقه ، فهاج الجند وأخذوا يصيحون : القتل القتل ! الانتقام
 الانتقام ! وظل الملك يشير إليهم بيده يدعوهم إلى السكون والهدوء حتى
 هدأوا ، فتقدم نحو قسطنطين خطوة ثانية ووضع يده على كتفيه وسأله مرة
 أخرى : ماذا تقول يا قسطنطين ؟ دافع عن نفسك ، فإن سكوتك حجة
 عليك ، لا تصمت ولا تطرق ، وقل كلمة واحدة فإنني أصدقك في كل
 ما تقول . فاستمر في صمته وإطراقه وهو يقول في نفسه : كيف أدافع عن
 نفسي ، وأي سبيل أسلكه إلى ذلك ، والسبيل جميعها وعرة شائكة ، لا تقوى
 قدمي على اجتيازها ، إني لا أستطيع أن أبرئ نفسي إلا إذا اتهمت أبي ،
 وقد قتلته مرة فلا أقتله مرة أخرى ! ثم ابتسم ابتسامة الممتعض وقال في
 نفسه : قد كنت أطلب الموت بكل سبيل حتى جاءني يسعي إلى بقدميه ،
 فلم أخشاه وأرتاع منه ؟ فليكن ما أراد الله أن يكون . ثم رفع رأسه
 إلى الملك وقال له : ليس عندي ما أقوله لك ياسيدي فاصنع بي ما تشاء .
 فصاح الجمهور : ليسقط الخائن ! ليقتل المجرم ! وهجموا عليه ليفتيكوا
 به فاعترض الملك طريقهم وقال لهم : دعوه وشأنه ، فإن أمره موكل^(٣) إلى

(١) يطرف : يحرك جفنه . (٢) بازليد : (٣) موكل : (٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) (١٠) (١١) (١٢) (١٣) (١٤) (١٥) (١٦) (١٧) (١٨) (١٩) (٢٠) (٢١) (٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٥) (٢٦) (٢٧) (٢٨) (٢٩) (٣٠) (٣١) (٣٢) (٣٣) (٣٤) (٣٥) (٣٦) (٣٧) (٣٨) (٣٩) (٤٠) (٤١) (٤٢) (٤٣) (٤٤) (٤٥) (٤٦) (٤٧) (٤٨) (٤٩) (٥٠) (٥١) (٥٢) (٥٣) (٥٤) (٥٥) (٥٦) (٥٧) (٥٨) (٥٩) (٦٠) (٦١) (٦٢) (٦٣) (٦٤) (٦٥) (٦٦) (٦٧) (٦٨) (٦٩) (٧٠) (٧١) (٧٢) (٧٣) (٧٤) (٧٥) (٧٦) (٧٧) (٧٨) (٧٩) (٨٠) (٨١) (٨٢) (٨٣) (٨٤) (٨٥) (٨٦) (٨٧) (٨٨) (٨٩) (٩٠) (٩١) (٩٢) (٩٣) (٩٤) (٩٥) (٩٦) (٩٧) (٩٨) (٩٩) (١٠٠)

مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين أيدينا إلا أن نفكر الآن في الطريق إلى الدفاع عن وطننا وحمايته ، ودفع هذه النازلة الملية بنا ، فسيروا بنا أيها الجنود الأبطال إلى ساحة الحرب وأنا قائدكم .

ثم التفت إلى الحراس وأمرهم بالقبض على قسطنطين والذهاب به إلى السجن حتى يفصل القضاء في أمره .

فنهف به قسطنطين وقال : لي كلمة واحدة أحب أن أقولها لك يامولاي فذعرت بازليد ، وارتعد لازار ، واشربأب القوم بأعناقهم ، والتفت إليه الملك وقال : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أنت تعلم يامولاي أنني جندي قديم ولدت في ساحة الحرب ، وقضيت حياتي في ميادينها ، ولا أمنية لي في الحياة غير أن أموت فيها : وأنت الآن قائد الجيش وصاحب الأمر والنهي فيه ، فأذن لي أن أسير في ركابك جنديا صغيرا ، لاقائدا ولا أميرا ، لاقاقتل معكم حيث تقااتلون ، ولك على عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة إلا منتصرا أو محمولا على الأعواد^(١) إلى حيث آوى إلى منزلي الأخير الذي لارجعة لي منه ، علني أكفر بذلك عن زلتى التي زلتها ، وأنتقم من نفسى بنفسى فعجب الملك لأمره وظل يردد نظره في وجهه هنيهة وكان نفسه كانت تحده بيرامته وطهارته ، إلا أنه لم يلبث إلا قليلا حتى زوى وجهه عنه^(٢) وقال له : لا أستطيع أن آذن لك بشئ . فالموت في ساحة الحرب منزلة لا ينالها إلا الأبناء المخلصون !

(١) النعش . (٢) زوى وجهه : قبضه .

فَتَنَفَّسَ الْجَمْعُ الصَّعْدَاءُ^(١) وَخَرَجَ الْمَلِكُ تَحِيْطُ بِهِ جُنُودُهُ وَحَرَّاسُهُ وَهُوَ

يَرُدُّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ : وَارْحَمْتَاهُ لَكَ أَهْلُهَا الْفَقِي الْمُسْكِينِ !

فَتَقَدَّمَ الْحَرَّاسُ إِلَى قَسْطَنْطِينٍ فَقَيَّدُوهُ ، وَجَاءَتْ بَازِيلِيدُ فَوَقَفَتْ بِجَانِبِهِ
وَقَالَتْ لَهُ بِصَوْتٍ خَافَتْ لَا يَسْمَعُهُ سِوَاهُ : نَعَمْ ، إِنِّي سَأَقْضِي مَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِ
حَيَاتِي حَزِينَةً بَاكِيَةً مُتَأَلِّمَةً كَمَا قُلْتَ ، وَلَكِنِّي قَدْ انْتَقَمْتُ لِنَفْسِي ، وَخَسْبِي
ذَلِكَ وَكَفَى ، فَلَمْ يَرْفَعْ نَظْرَهُ إِلَيْهَا احْتِقَارًا وَازْدِرَاءً ، بَلْ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى
السَّمَاءِ وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَسْأَلُكَ الْمَوْتَ يَا رَبِّ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَأَضْرَعُ إِلَيْكَ
فِيهِ لَيْلِي وَنَهَارِي ، فَبَعَثْتَ بِهِ إِلَيَّ ، وَلَكِنْ فِي أَفْطَحِ صُورَةٍ وَأَهْوَلِهَا ،
فَامْدُدْ إِلَى يَدَيَّ مَعُونَتَكَ وَرَحْمَتَكَ ، لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَشْرِبَ الْكَأْسَ حَتَّى
تُمَآلَّتْهَا^(٢) وَخَذَ يَدِي فِي شِدْقِي فَقَدْ تَخَلَّى النَّاسُ جَمِيعًا عَنِّي ، وَأَصْبَحْتُ
أَحْتَمِلُ مَا أَحْتَمِلُ مِنَ الْآلَامِ وَحْدِي ، وَلَيْسَ بِجَانِبِي مَنْ يَخَفُّ عَنِّي لَوْ عَنِي
أَوْ يَمْسَحُ يَدَهُ دَمْعَةً مِنْ دُمُوعِي .

فَخَرَجَتْ مِيلْتَرَا مِنْ وَرَاءِ سِتَارٍ كَانَتْ مَخْتَبئةً فِي طَيَّاتِهِ ، وَتَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ
وَجَثَّتْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ الْمُؤَثَّقَتَيْنِ وَقَالَتْ لَهُ : لَسْتُ وَحْدَكَ يَا مُوَلَايَ فَهَآئِذَا !
فَقَهَّلَ وَجْهَهُ بَعْدَ عُبُوسِهِ وَقَالَ : اأَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ حَمْدًا كَثِيرًا . ثُمَّ خَرَجَ مَعَ
الْجُنُودِ يَرْسُفُ فِي قُبُودِهِ ، حَتَّى وَصَلُوا بِهِ إِلَى السِّجْنِ فَأَوْدَعُوهُ وَأَوْصَدُوا
الْبَابَ مِنْ دُونِهِ ، فَرَبَّضَتْ مِيلْتَرَا عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ رُبُوضَ الْكَلْبِ الْآمِينِ
عَلَى قَبْرِ سَيِّدِهِ الدَّفِينِ ، وَأَنْشَأَتْ تَنْدُبُهُ وَتَبْكِيهِ بَكَاءً تَهْتَزُّ لَهُ جَوَانِبُ
الْأَرْضِ وَتَتَدَاعَى لَهُ أَرْكَانُ السَّمَاءِ !

(١) تَنَفَّسَ الْجَمْعُ الصَّعْدَاءُ .

(٢) نَفَسًا طَوِيلًا . (٢) الثَّمَالَةُ : الْبَقِيَّةُ الْآخِرَةُ فِي الْكَأْسِ .

التمثال

انتصر الملك في الواقعة التي حضرها وقاد فيها الجيوش بنفسه انتصاراً عظيماً كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية التي كان يَبْثُها في نفوس جُنُده أثناء المعركة ، فقد كان يمشى بين الصفوف بِطَيْلَسَانِه الأسود ، والصليب في يده ، يهتفُ باسم المسيح والمسيحية ، ويُنَادِي : دافعوا يا أبناء يَسُوعَ عن دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم إن غلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة أبد الدهر . وهم يَسْتَبْسِلُون ويستَقْتَلُون ويصبرون للموت صبر الكرام ، حتى بَرَقَتْ لهم بارقة النصر ؛ فأطبقوا على جيوش العدو من كل جانب ، فتقهقرت أمامهم إلى ما وراء الحدود وتخلت عن جميع المعابر والجبال التي اجتازتها بالأمس ؛ فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالاً عظيماً دام عدّة أيام ، ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين وجريمته التي اجترمها والجزاء الذي سيلقاه في سبيلها وكلهم يتمنى بِجَدْع أنفه ^(١) أن يشاهد مَضرَعَه ، ويرى دماؤه تتدفقُ من بين لَحْيَيْهِ ^(٢) .

ولم يَزَلْ هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذي يجتمع فيه مجلسُ القضاء للنظر

(١) جدع الأنف : قطعه .

(٢) اللحيان : منبتا شعر اللحية على الجانبين ؛ يريد عنقه .

في تلك القضية ، فذهب الملكُ ليلةَ المحاكمةِ إلى السَّجينِ في سجنه ، وخَلا به ساعةً يسأله عن جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها ، وحاوله في ذلك مُحاولَةً كثيرةً ، فلم ينطق بشيءٍ ولا دافع عن نفسه بحرف واحد ، حتى عَيَّ المَلِكُ بأمره (١) فأمر بإخراجه من السجن إلى الساحة العامة المُقام فيها تمثال أبيه ، وأمر أن يُشَدَّ بأغلالٍ إلى قاعدةِ التمثالِ نِكايةً به وتمثيلاً ، ثم قال له : انظر أيها الخائن ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد ، وماذا صَنَعَتْ يَدُكَ بذلك البناء الذي ابْتَنَاهُ ! وَتَرَكَه وانصرف .

فلما انفردَ بنفسه أطرق ساعةً يُفَكِّرُ في شأنه وفي مصيره الذي صار إليه ، ثم رفع رأسه إلى التمثال ، وكان الليل قد هدأ وسكن ونامت كُلُّ عَيْنٍ فيه حتى عيون العَسَسِ والحُرَّاسِ ، فأنشأ يناجيه ويقول :

هنيئاً لك أيها الرجلُ بِجُورِكَ وعِظَمَتِكَ وتمثالِكَ الشاخِ الرفيعُ الذاهِبُ
بعلوه في آفاق السماء !

هنيئاً لك الصيتُ البعيدُ والشهرةُ الدائمةُ والشرفُ الخالدُ المسجَّلُ لك في صفحات التاريخ ، وأن الناس لا يَمُرُّونَ بتمثالِكَ حتى يَجْمُؤُوا تحت قاعدتهِ جُثَيِّهِمْ تحت قَدَمَي الإلهِ المعبود !

أترى بعد ذلك أنك مظلومٌ أو مغبونٌ ، أو أن الضربة التي أصابتك من يدي قد حرمتك شيئاً في هذه الحياة تندبُه وتأسَفُ عليه ؟

(١) تَحْيِيرُ المَلِكِ فِي أَمْرِهِ .

لقد كنتَ في الساعةِ الأخيرة من أيام حياتك ، ولم يكن بينك وبين
الانحدار إلى قبرك إلا بضْع خطوات قصار ، فكل ما كان منى لك أنى
أنقذتك من تلك المِيتة الدنيئة السافلة التى كنت تريدُها لنفسك ، وقدّمتُ
إليك بدلا منها مِيتةً شريفة مقدسة ترمُقُها العيون وتقطعُ من دونها
الأعناق ، والبسيتُك تاجاً أشرفَ من ذلك الناج الذى كنتَ تطلبه
وتسعى إليه ، وأجلستُك على عرش أرفعَ من جميع عروش الأرض ،
وهو عرشُ التاريخ !

لا تسبقِ في نفسك شيئاً من الضغنِ على ، ولا تُضمِرِ لى فى قلبك
وأنت فى عالم الحقيقة المجردة الذى لا يُخالطُه كذبٌ ولا رياء ، غير ما يجبُ
على المريضِ المِبل^(١) أن يُضمِرَه لطيبه الذى شفاه من دائه ، وأنقذه
من شقائه ، فإن كان لا بد لك أن ترى أنى أجمرتُ إليك ووترتُك^(٢)
فهاأنذا أكفر عن جريمتى بأعظم ما كُفِّر به مجرمٌ عن جريمته !

انظريا أبتِ ماذا صنعتُ فعلتُك التى فعلتُ بولدك . هاهو الغلُ يُحيطُ
بعنقه حتى كاد يخنقه ، وهاهى القيود تَعَضُ قدميه وتدميهما ، وهاهو
السيفُ مجزّد فوق هامته لا تطلعُ الشمسُ من مَشرقها حتى يسقط عليها
فيفصلها عن جُثتها ، وهاهم الناس جميعاً رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً ،
يلعنونه بالسنتهم وقلوبهم فى كلِّ مكان ، ويضمرون له من الحقد والبغضاء

(١) أبل المريض : نجا من مرضه . (٢) وتره : أصابه بمكروه .

مالو امتد إلى جسمه لأحرقه وأحاله رمادا باردا .
أنت المجرم وأنا المعاقب ، أنت الخائن وأنا المأخوذ بخيانتك ، أنت
المتمتع بنعمة الشرف العظيم الذي لا تستحقه ، وأنا المقسربلُ بسربالِ
الإهانة الدائمة التي لا أستحقها ؟ لقد أخطأ القَدْرُ في أمرنا مرتين : فرفعك
من حيث تستحقُ الوضع ، ووضعني من حيث أستحقُ الرِّفْعَ ، ولو أنه
أنصفَ في حكمه بيننا لأخذ كل منا مكان صاحبه ، فأصبح التمثالُ لي ،
وأصبح السجنُ لك !

هنيئاً لك مجدك وشرفك وصيتك وسمعتك ، وما اهتكتك تهنة الهازي
الساخر ، بل تهنة الفارح المغتبط لأنك أبي ورئيسُ أسرتي ، وسيدُ قومي
وحبيبٌ إلى جدِّا أن يعيش أبي عظيماً في حياته وبعد مماته !

إن آلامي يا أبت عظيمة جداً لا تستطيع أن تحتملها نفسٌ بشرية في
العالم ولكن يُوقِنُها على أني أموت من أجلك وفي سبيل مجدك وشرفك ،
وأني لم أخرج من الدنيا حتى رأيت تمثالك العظيم مشرفاً من علياء سمائه
على جبال البلقان وهضابها كما تشرف الشمس من أبراجها على ماتحتها .

ما أنا بنادم على ما كان ولا خائف مما يكون ، فليأت الموت إلى في
الساعة التي يُريدها ، فقد قمتُ بواجبي لك ولبلادي ، وحسبي ذلك وكفى .
كان لا بد لي أن أقتلك ففعلت ، ولكنني قتلتُك فيجب أن أقتلَ بك ،
كلانا أجرم وكلانا لقي جزاء إجرامه .

أجرت إلى الوطن فانتقمته له منك ، وأجرت إلى الطبيعة فن العدل
أن تنقم لنفسها مني ، فما ظلم أحد منا صاحبه ولا اعتدى عليه .
ارفع رأسك أيها الرجل تيتها وعُجبا وزاحم بمنكبيك أجرام السماء
وكواكبها ، فقد غسل ابنك بدمه جرمك وعارك ، فإن لم تكن شريفا
بنفسك فحسبك شرفا أنك والد الولد الشريف !
ولم يزل في مناجاته هذه حتى مضت هداة من الليل ، فالتف بردائه
ووضع رأسه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه إلى نوم طويل .

النهاية

ازدحم الناس يوم المحاكمة في الساحة الكبرى ازدحاما عظيما ينتظرون
عودة الملك من مجلس القضاء ليعلن حكمه أمام المتهم ، والمتهم هادئ
ساكن تحت قاعدة التمثال لا ينتظر شيئا ، لأنه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم
وقد وطن نفسه عليه فلم يعد يحفل به .

ولأنهم لذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته ، فاشرأبت إليه الأعناق
لسماع كلمته ، ولم يزل سائرا بين الصفوف حتى وقف أمام المتهم فنظر إليه
نظرة طويلة ثم صاح بأعلى صوته : يا قسطنطين برانكومير ، إن الجريمة التي
اقترفتها عظيمة جدا لا ينبغي بها فتلك وسفك دمك ، لذلك رأى مجلس القضاء
أن يحكم عليك بالحياة بدلا من الموت . . . فقاطعه الجماهير ، الموت ! الموت !

لا بد من قتله ! لا يمكن أن يعيش ، فأشار إليهم بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقية كلامه ، فهدأوا ؛ فاستمر يقول ، وأن تَظُلَّ طولَ أيام حياتك مقرونا بأغلالك هذه إلى قاعدة تمثال أبيك ، ليرتد وجهه في وجهك ليلك ونهارك ، فتموت في مكانك حيا منه وخجلا ، وأن يؤذن لكلِّ ماري بك من عيلة الناس وغوغائهم أن يَبْصُقَ على وجهك ويصفعَكَ على قَدَّالك ، وينال منك ما يشاء إلا أن يَسْلُبَكَ حياتك .

فصاح الجماهير : يعيش الملك ، يحيى العدل ، يسقط الخائن ، وظلوا يرددون هذه الكلمات وأمثالها وقتاً طويلاً .

هنا ذرفت عينا ذلك الرجل العظيم الذي لم يبك في يوم من أيام حياته لضربة سيف ، أو طعنة رُح ، أو رشقة سهم ، وعلا صوتُ تحيته ونشيجهِ كما يفعل النساء الضعيفات في مواقف حزنهن وثكلهن ، وما كان مثله من يبكي أو يذرف دمعة واحدة من دموعه لو أن الذي كتب له في صحيفة الغيب من الشقاء ، وكان الوقوف بين السيف والنَّطْع " ، أو السقوط بين آلات العذاب تنال من جسمه وأطرافه ما تشاء ، ولكنه الشرف ، شديداً جداً على صاحبه أن تنزل به نازلة مُدِلَّة ، أو يتصل به ظفر جارح من أظفار الهوان ، فإذا شعر بشيء من ذلك هاله الأمر وراعه ، وخارت عزيمته ، ووهنت قوته ، فبكى بكاء

(١) النطع : فرش من جلد كان يديس للبحكم عليه بالموت ليذبح فوقه فهو بين السيف من فوقه والنطع من تحته .

الضعفاء ، وأعوّل إعوَال النساء . ولقد رضى قسطنطينُ من حظّه من الحياة بالموتِ فراراً من العار الذى لحقه ، وهرباً من نظرات الناظرين إليه ، وموجدةِ الواجدين عليه ، أما وقد علم أنه سيعيش والعارَ معاً رفيقين متلازمين لا يفترقان ولا ينفصلان فلم يبق له بدّ من الجزع ، ولم يبق بين يديه سبيل غيرُ البكاء ، فسكى ما شاء الله أن يفعل ، وأخذ يُردّد بينه وبين نفسه ، يا لليأس ! يا للشقاء ، لقد استحال علىّ كلُّ شيء حتى الموت .

ثم رفع طرفه إلى السماء وقال بصوت خافت متقطع : رحمتك اللهم وإحسانك ، فقد أصبحت عاجزاً ضعيفاً لا أملك من شئون نفسى شيئاً فامدّدْ إلى يدِ عنايتك ولطفك لاَستطيعَ أن أتم واجبى إلى النهاية .

وهنا وقف لازارُ فوق هضبة مرتفعة - وكان لا يزالُ رأس الفتنة وشعلتها - وأخذ يصرخُ بصوت عال قائلاً : إن رأى مولانا الملك أن يأذن لنا بتنفيذِ أمره الساعة ... فقد أوشكتُ صدورنا أن تنفجر فصاح الجمهور من ورائه صيحه ، ودعواً بمثل دعوته : فاصفر وجهُ الملك وارتجفت أطرافه ارتجافاً خفيفاً ، ثم قال بصوت خافت مهافت : لكم ما تشاءون ، وتحول من مكانه يريدُ الانصراف .

وهنا برزت ميلترا من بين الجماهير ، واندفعت نحو قسطنطين تسبق الميديعين إليه ، وهي تقول : فليبق لك أيها المسيكينُ على الأقلّ قلب

واحدٌ يرحمك ويعطفُ عليك ! وضمنه إلى صدرها كأنما تُريد أن تقيّه
بنفسها ، فسمع الملكُ صوتها فالتفت فرآها ، ولم يكن يعرف من شأنها
شيئاً ، فعجبَ لامرأها وأشار إلى الجماهير بالشكوتِ حتى يعلم ما خطبها ،
ثم مشى نحوها وقال لها : أتعلين أيتها الفتاة من هذا الذى نخمين ، وما
جريمته التى اقترفتها ؟ فرفعت رأسها إليه وألقت عليه نظرة الليث فى عَينه
وقالت له : لا أعلمُ من أمره شيئاً سوى أننى أحبه ولا آذن لأحد أن يناله
بمكرهه وفى بَقِيَّة رَمَقٍ من الحياة ! قال : إنه ارتكب جريمة الخيانةِ
الكبرى للأمة والوطن ، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب ، ولا بد
من إنفاذ حكمه قالت : إن الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل
شئ. فى العالم فزقونى إرباً إرباً لتستطيعوا أن تصلوا إليه .

فلعلت فى ثغر قسطنطين ابتسامةٌ فى وسط هذه الدُجَّة الحالكة^(١) من
الهموم والاحزان ، وضمنها إلى نفسه وقال لها : سُكراً لك باميلترا ، فقد
أحييت نفسى الميتة ، وسَرَّيتِ عني همومى وآلامى ، ذودى عني يا صديقتى
وَصُونِ وجهى من العار الذى يُريدون أن يُلصِقوه بى فلم يبق لى فى العالم
مَنْ يرحمنى أو يعطف على سواك !

أخذ الجماهيرُ يصيحون : اقتلوهما معا ، مزقوا جسيهما بالسيوف ،
وانثروا أشلاءهما فى الفضاء .

(١) الظلمة الحالكة .

ثم تدافعوا نحوهما تدافع الصُّخُورِ الهائلةِ من أعلى الجبال ، فصاحت
ميلترا : أيتها الوحوش الضارية : والخلائق الساقطة ، مهما كثر عددُكم ؟
وعظمت قوتكم ، فإنكم لن تستطيعوا أن تصلوا إليه أو تُلحقوا به إهانة
من الإهانات التي تضربونها في نفوسكم ، فإن أَيْتُم إلا أن تفعلوا فاعلموا
أنني أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة على أن أخلصه من أيديكم ، فلم
يخفوا بكلامها ولم يفهموا غرضها ، واستمروا في اندفاعهم وتدفعهم .

وهنا حدث ذلك الحادث الهائل الذي شخّصت له الأبصارُ ، وذهلت
له العقول ، وجمدت لمنظره الدماء في العروق ، فقد علمت ميلترا أن
القضاء واقع لا مفر منه ، وأن القوم لا بُدَّ بالغون من قُسطنطين
ما يريدون ، وأن لاطاقة لها بحمايته والذود عنه ، وهالها هولا عظيما
وكبر في نفسها أن ذلك الوجه الشريف المتلألئ بنور الفضيلة والكرم
والطهارة والبراءة يُصبح هدفاً دينيا لهؤلاء الغوغاء الشائرين ويلطمه من
يلطم ، ويصق عليه من يبصق ، فلما أصبحوا على مقربة منها ولم يبق
بينهم وبينها إلا بضغْ وثبات ، حنّت عليه وهمست في أذنه قائلة : في
استطاعتك ياسيدي أن تنجى نفسك بكلمة واحدة تعترف فيها بكل شيء ،
فرفع طرفه إلى السماء ، ثم ألقاه على تمثال أبيه ، ثم نظر إليها نظرة دامعة
حزينة وقال : « لا أستطيع » .

فجرت من منطقتها خنجرها الذي كانت قد استهدته إياه فيما مضى ،

ورفعت في الهواء ثم طعنت به في صدره طعنة نجلاء . وهي تقول : مت
شريفاً أيها الرجلُ العظيمُ كما عشتُ شريفاً ، وسأتبعك إلى سماءك التي
تصعدُ إليها . فسقط مُضَرَّجاً بدمائه وهو يقول بصوت ضعيف متقطع :
شكراً لك يا ميلترا .

وكان القوم قد بلغوا موقفهما ، فرفعت الخنجر مرة أخرى وطعنت
نفسها ، فترنحت قليلاً ثم سقطت على مقربة منه ، وكان لا يزال يُعَالجُ
السكَّرةَ الأخيرة : ففتح عينيه فرآها ، فأخذ يسحبُ نفسه سحاً حتى بلغ
مصرعها ، فألقى يده عليها وظل يجذبُها نحوه كأنما يحاول أن يضمَّها إلى
نفسه فلم يستطع ، فسقط رأسه على صدرها ، فشمرت به فضات ما بين
شفتيها ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن انطفأت وتغلغلت في ظلمات الموت .
وظلا على هذه الحالة حتى فاضت نفساهما .

فأثر هذا المنظرُ الرهيبُ في نفوس الجماهير ، وسكنوا في مواقفهم
سكوناً عميقاً لا تتخلله نائمة ولا حركة ، وظلوا على ذلك ساعة حتى نطق
الملك بصوت خشن أجش تخالطه رنة الحزن والأسف قائلاً : أيها
المسيحيون : صلُّوا جميعاً لهذين البائسين الشقيين ، واسألوا الله لهما
الرحمة والغفران .

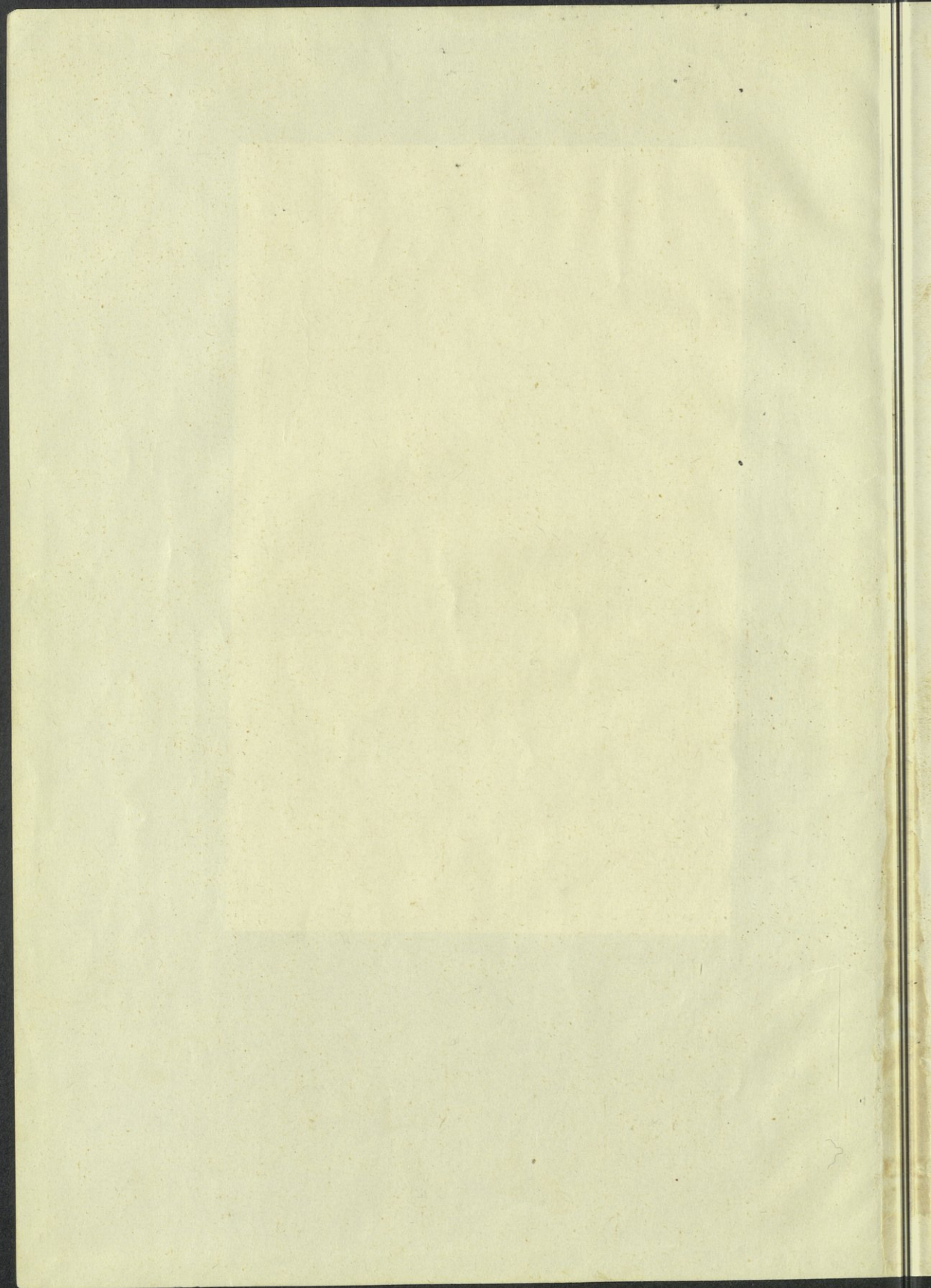
ثم رفع قلنسوته وجثا على ركبتيه ، فرفع القومُ قبعاتهم وجثوا
حول الجثتين وأخذوا يتلون صلواتهم بنغمة حزينة مؤثرة ، كأنما هم

يَسْكُونُ عَزِيزًا عَلَيْهِمْ ، أَوْ شَهِيدًا مِنْ شَهِدَائِهِمْ ، وَمَا فَعَلُوا غَيْرَ ذَلِكَ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ...

ظَلَّتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ مَجْهُولَةً لَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَمْسَةَ وَثَلَاثِينَ
عَامًا ؛ حَتَّى حَضَرَ « بَازِيلِيدَ » الْمَوْتُ ، فَظَلَّتْ تَهْدِي بِهَا فِي مَرْضَاهَا
وَتَرَدُّدُهَا فِي يَقَظَتِهَا وَأَحْلَامِهَا ، وَتَتَأَلَّمُ لِذِكْرِهَا أَلَمًا شَدِيدًا عَلَى مَسْمَعِ
مَنْ كَاهِنُهَا وَعُودَادِهَا ، حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهَا ؛ فَعَلِمَ النَّاسُ وَلَكِنْ بَعْدَ عَهْدٍ
طَوِيلٍ ، وَبَعْدَ أَنْ تَبَدَّلَتْ شُؤْنُ الْبَلْقَانِ غَيْرَ شُؤْنِهِ - أَنْ « قُسْطَنْطِينَ »
بِرَانْكَوْمِيرَ ، أَشْرَفُ النَّاسِ وَأَفْضَلُهُمْ ، وَأَعْظَمُهُمْ وَطَنِيَّةً وَإِخْلَاصًا ، لِأَنَّهُ
ضَحَّى أَبَاهُ فِي سَبِيلِ إِنْقَازِ وَطَنِهِ ، ثُمَّ ضَحَّى نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ إِنْقَازِ شَرَفِ أَبِيهِ ،
فَبَلَغَ فِي وَطَنِيَّتِهِ وَشَرَفِ نَفْسِهِ الْغَايَةَ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا .

مَهْذَبُهُ رَافِئٌ ، يَحْلُلُ رَسْمَهُ فِي سَبِيلِ الْخَطَا أَنَّهُ رَافِئٌ
يُطْفِئُ نَارَ ذَلِكَ بِدَلِيلِ الْإِطْلَاقِ ، يَحْلُلُ كَيْفَ ذَلِكَ بِالْفَقْدِ لَا لِقِيَةِ ذَلِكَ
لِأَنَّ كَلَامَهُ يَفْهَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ طَعَالِيقِ رَشَاءِ نَشْأَتِهِ وَطَعَالِيقِ
لَهُ هَذَا الْإِسْلَامُ ، نَبِيَّيْنِهَا نَبِيَّيْنِهَا نَبِيَّيْنِهَا لِقِيَةِ الْإِطْلَاقِ : نَبِيَّيْنِهَا
رَفِيعَ طَرَفِهِ إِلَى السَّيِّئِ الْمَعْنَى عَلَى مَعْنَى الْإِطْلَاقِ ، نَبِيَّيْنِهَا فَهَذَا

الْمَعْنَى الْمَرْكُوبَةُ وَمَعْنَى الْإِطْلَاقِ ، فَيَبْدَأُ بِدَلِيلِ الْإِطْلَاقِ وَفِيهِ
وَلَدَ ذَلِكَ قَوْلُهُ قَوْلُهُ فَيَبْدَأُ بِدَلِيلِ الْإِطْلَاقِ وَفِيهِ



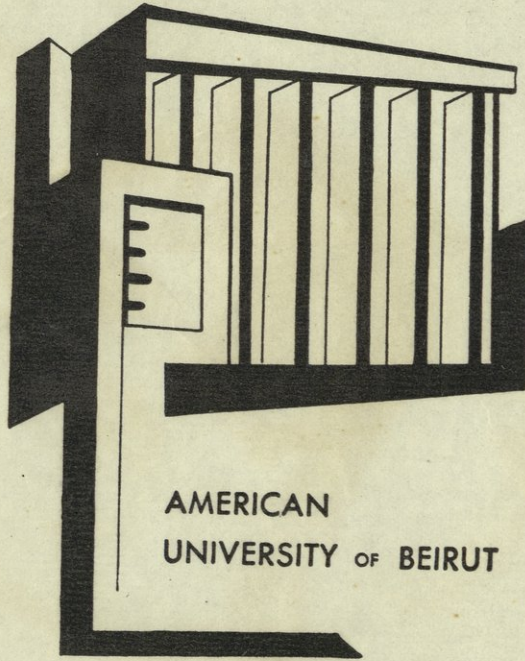
DATE DUE



المنفلوطي، مصطفى، لطفي
في سبيل النّاج: وهي خلاصة رواية تمت
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038552



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

848
C785poA
1954
c.1